

## البدو والبادية فى تونس الحديثة من خلال آثار الرحالة الأوربيين

الحبيب الجموسى<sup>(١)</sup>

يمكن اعتبار البدو فى تونس كما فى بقية الوطن العربى من ضمن المنسيين أو من «لا تاريخ لهم»، وذلك مقارنة بالحظوة التى نالتها طبقات الأعيان وأصحاب السلطة والجاه لدى المؤرخين والمخبرين والمحدثين خلال مختلف الأحقاب التاريخية. ولم يرد ذكر هذه المجموعة المهمشة إلا عَرَضًا من خلال الحديث عن الصراعات السياسية فى البلاد العربية بصفة عامة أو عندما يتحامل عليهم الحضريون فيطلق المؤرخون العنان لأقلامهم محمّلين البدو تبعات شتى أنواع الأزمات<sup>(٢)</sup>.

إلا أن البدو، خلال مختلف الأحقاب التاريخية، فرضوا وجودهم على المجتمعات العربية المتمدّنة برفضهم الرضوخ لمشيئة أصحاب السلطة وبثوراتهم المتتالية على مختلف الأنظمة السياسية. كما فرضوا نمط معيشتهم فى ترحالهم واستقرارهم على المجتمعات الحضرية، فيما يمكن أن نعبر عنه اليوم «بالثقافة البدوية» التى تحدت الزمن وخلّدت مخزوننا ثقافيا بدويا يتألف من شعر وغناء وأكل ولباس... اعتبارا لكل هذه المعطيات، نتساءل عن موقع هذه الشريحة فى المجتمعات العربية فى الكتابات التاريخية والدراسات الأنتروبولوجية؟ يجد المؤرخ نفسه دائما رهين المصادر التاريخية التى يعتمد عليها نظرا لما سبق ذكره من تجاهل المصادر العربية تاريخ المجتمعات البدوية عبر مختلف الأحقاب التاريخية، كثيرا ما يلتجئ المؤرخ فى حقل أبحاثه وتقصّيه للواقع التاريخى إلى المصادر الغربية كلما استحثته شح المصنفات العربية الكلاسيكية المألوفة.

(١) أستاذ التاريخ الحديث - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - صفاقس، الجمهورية التونسية.

(٢) لعلّ ابن خلدون قد انفرد دون غيره من المؤرخين والباحثين فى تاريخ المجتمعات العربية بالحديث المطول عن البدو والبادية وذلك يندرج فى صلب تحليله لتشكّل العمران انطلاقا من مرحلة البداوة التى يعتبرها أمرا ضروريا و«إنّ البادية أصل العمران والأمصار مدد لها»، ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة، تقديم وتعليق الأستاذ خليل شحاذة، دار الفكر، بيروت ٢٠٠١م، انظر «فصل فى أنّ البدو أقدم من الحضّر وسابق عليه وأنّ البادية أصل العمران والأمصار ومدد لها»، ص ١٥٢.

وتبدو كتب وآثار الرخالة الأوربيين في غالب الأحيان أكثر المصادر الغربية أهمية؛ إذ يمكن الاعتماد عليها لاستقاء بعض الأخبار أو لتصحيح أخرى برغم ما تحتوى عليه تلك المؤلفات من نقائص. والفترة الحديثة هي أكثر الفترات التاريخية حاجة إلى هذا الصنف من المؤلفات كلما تعلق الأمر بكتابة التاريخ الاجتماعى والثقافى. فالمصنفات المحلية للفترة الحديثة أولت عناية خاصة بتاريخ البلاطات والحياة السياسية وأهملت إلى حد ما الحياة اليومية للمجتمعات. أما الأوربيون الذين توافدوا على البلاد التونسية خلال هذه الفترة بأعداد كبيرة، مرورا منها إلى مختلف مناطق البلاد العربية، فقد أظنوا في نقل شهادات جد طريفة حول مختلف أوجه الحياة الاجتماعية لكل أصناف التونسيين بعيدا عن كلّ الاعتبارات العرقية أو السياسية التى اعتمدها المؤرخون المحليون فى تصنيفهم للمجتمع التونسي. بل أظهرت الدراسات الإثنوغرافية والأنثروبولوجية الغربية منذ نهاية القرن ١٨ اهتماما خاصا بنمط العيش البدوى بالذات بعيدا عن الصراعات السياسية/ الاجتماعية التقليدية بين البادية والمراكز الحضريّة.

ذلك ما سمح لنا رصد تطور البداوة كظاهرة اجتماعية قديمة تغيرت ملامحها بتونس خلال الفترة الحديثة؛ إذ إن هذه الفترة الانتقالية شهدت أبرز الأحداث والتقلبات السياسية. فقد سبقتها فترة الدولة الحفصية وهى فترة استقرار لنمط عيش بدوى انتشر داخل البلاد بين قسنطينة وطرابلس حيث انتقل البدو دون قيود ولا حواجز<sup>(١)</sup>. وعمدت الإدارة الاستعمارية، منذ انتصابها، إلى تشديد الرقابة الحدودية بصفة واضحة وبالتالى إلى القضاء على نمط العيش البدوى وتثبيت القبائل المرحلة فى مناطق قارة للسيطرة عليها. أما خلال الفترة الحديثة، فيبدو أنّ الحكم المركزى قد فشل فى السيطرة الفعلية على البداوة المنتشرة فى كامل أرجاء البلاد التونسية انطلاقا من المبادئ الحضريّة «للتعايش السلمى» كما فى فرض نظام الجباية على القبائل المستقرّة. لذلك اعتمد أصحاب السلطة، وخاصة منهم البايات الحسينيين<sup>(٢)</sup>، على جلب قسم من القبائل البدوية إلى صفهم واعتمدوا عليها فى مقاومة استعصاء أخرى.

(١) يذكر ابن أبى دينار أنّ الأعراب كانوا فى فترة الدولة الحفصية «فى قوة واستحوذوا على جلّ البلاد كعرب إفريقية وأولاد أبى الليل وأولاد بو سالم...» ابن أبى دينار القيروانى (محمد بن قاسم)، المؤسس فى أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧م. ص ٢٢٨.

(٢) قامت الدولة الحسينية على يد حسين بن على التركى سنة ١٧٠٥م.

من هذه المنطلقات أصبح لزاما علينا تبني «الزمن البنيوي» أو «الأمد الطويل» في تمثينا لتقصي ميكانيزمات تدرج علاقة السلطة بالبدو من ناحية وللوقوف على تطور ظاهرة البداوة من ناحية أخرى، معتمدين في ذلك على مادة إخبارية «غربية» ثرية تسمح لنا بتسجيل أدقّ خصائص عادات وتقاليد البدو التي اندثر أغلبها بحكم التطور .

## البدو والبادية في المخيال الأوربي

### الأوروبيون والمجتمع التونسي خلال الفترة الحديثة:

عرفت الإيالة التونسية خلال الفترة الحديثة وبالتحديد ما بين القرنين ١٧ و ١٩ اهتماما غير مسبوق من قبل الأوروبيين، ذلك ما أدى إلى وصول عدد كبير من الرحالة الغربيين إليها. ويمثل هؤلاء فئة مرموقة من المثقفين تعددت اختصاصاتهم وميولاتهم إذ نجد من بينهم الأدباء والأطباء والعلماء والعسكريين. وقد تركوا لنا آثارا جاءت في شكل مذكرات شخصية أو رسائل لبعض الأصدقاء أو لأفراد عائلاتهم أو تقارير سرية لمؤسسات علمية أو لأطراف سياسية ضمت دراسات مختلفة الأهمية. وتبرز أهمية هذه الآثار على مستويين اثنين:

### على مستوى المقارنة:

تبدو أهمية هذه الآثار واضحة إذا ما قارنا بينها وبين المصادر التونسية للفترة الزمنية نفسها وخاصة كتابات المؤرخين التونسيين الذين كانوا في مجملهم مؤرخي بلاطات اجتهد جلهم في تمجيد أسيادهم من البيت الحسيني أو تحاشوا الدخول في جزئيات النظام والسلطة بتونس<sup>(١)</sup>. كما أنّهم غالبا ما أطنبوا في سرد الأحداث السياسية وأولوا الصراعات والتناحر على الحكم اهتماما أكبر. وبالتالي أهملوا دراسة الظواهر الاجتماعية، فباتت دقائق

(١) بالنسبة لتاريخ الإيالة التونسية خلال الفترة الحديثة، نذكر على سبيل المثال:

ابن أبي دينار القيرواني (محمد بن قاسم)، المؤنس... المصدر نفسه، الوزر السراج (محمد)، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٤م. الباجي (الصغير بن يوسف)، المشرع الملكي في سلطنة أولاد حسين بن علي تركي، تحقيق أحمد الطويلي، تونس ١٩٩٩م. ابن عبد العزيز (حمودة)، الكتاب الباشي، تحقيق محمد ماضور، دار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٠م. محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٨م. ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق أحمد الطويلي، دار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٩م.

الحياة اليومية للتونسي من عادات وتقاليد ولباس وأكل ومعاملات بديهية بالنسبة لهم إذ لم يعيروها أى اهتمام.

بيد أن هذه الجزئيات شددت انتباه الأجانب، بحكم انتماءاتهم الثقافية والحضارية الغربية. فلم يترك الرحالة الأوروبيون، - الذين زاروا البلاد التونسية خلال الفترة الحديثة - ظاهرة من الظواهر الاجتماعية إلا وسجلوها فى مذكراتهم وعلقوا عليها<sup>(١)</sup>.

### على مستوى الآثار فى حد ذاتها:

نتساءل هنا عن المميزات التى أهلت هذه الآثار لتلفت انتباه الباحثين وتجعل منها مصادر شبه وحيدة لدراسة الخصائص الاجتماعية للإيالة التونسية خلال الفترة الحديثة!. غالبا ما ينبهر الباحث أمام كثافة المعلومات التى تتضمنها آثار هؤلاء الرحالة كلما تعلق الأمر بطرائف الأخبار عن الحياة اليومية للتونسيين أو ما تقدم من دقيق الملاحظات عن الهياكل السياسية للدولة إذ إنهم جُبلوا - بحكم ثقافتهم واختصاصاتهم المتعددة - على «حب الاطلاع» مثلما عبّر عن ذلك الرحالة الإنجليزي Shaw Thomas<sup>(٢)</sup> عندما ذكر فى مقدمة كتابه أن «الغاية المنشودة من السفر إلى هذه البلاد (شمال إفريقيا والمشرق) هو الاطلاع على ما يشد الانتباه وآلاف الغرائب الأخرى التى تبدو على غاية من الأهمية...»<sup>(٣)</sup>.

تكمن هذه الغرابة التى تحدّث عنها أشهر الرحالة الغربيين خلال القرن ١٨ فى ما تعلق بالحياة اليومية للتونسي من عادات وتقاليد ولباس وأكل أو ما ورد من إشارات جدّ دقيقة عن الحياة الثقافية. ولئن بدت هذه الخصائص الاجتماعية مألوفا وبديهية لمؤرخى تلك

(١) انظر:

Jamoussi (H), «Les voyageurs européens en Tunisie au XVIIIè S: des Chrétiens en terre d'Islam», in Actes de la IVè rencontre internationale sur: Occident - Orient: Aux origines du dialogue islamo - chrétien (XVI è - XIX ès), F. T. E. R. S. I, Zaghouan, sep 2002, pp.24 - 39.

(٢) من أشهر الرحالة الأوروبيين. قام برحلة إلى شمال القارة الإفريقية خلال سنة ١٧٢٤م كما زار مصر والشام. يعتبر الكتاب الذى خلفه هذا الرحالة من أشهر كتب الرحلات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إذ أصبح مرجعا لكل الأوروبيين الذين زاروا هذه المناطق.

(3) Shaw (T), Travels observations relating to several parts of Barbary and Levant, Oxford, 1738, Traduit en français par Jean Neaulm, Voyage de Mr Shaw, MD... La Hay 1742, introduction.

الفترة ولا تبعث على الاستغراب حتى تصنف من بين المواضيع المؤهلة للمحيط، فهي تصبح بالنسبة لنا مادة أولية يمكن الاعتماد عليها في كتابتنا للتاريخ الاجتماعي التونسي للفترة الحديثة.

### صورة البدوى فى المخيال الأوروبى:

الصورة التى رسمها جلّ الرحالة الأوروبيين للبدو فى تونس خلال الفترة الحديثة هى عبارة عن تمثيل لما عجزوا عن فهمه على أرض الواقع إن كان ذلك على مستوى تحديد جذورهم التاريخية أو فى إطار تصنيفهم من حيث نمط عيشهم الذى يميزهم عن بقية سكان البلاد وتحديدًا سكان المدن. وتتبلور هذه الصورة ضمن المرجعيات الغربية التى اعتمدها فى فهمهم «للآخرين» من خلال التصور الغربى للعالم الخارجى بصفة عامة والشرقى بصفة أدق.

### صعوبة فى تحديد الهوية:

تبرز هذه الصعوبة كلما حاول هؤلاء الرحالة تصنيف البدو داخل المجتمع التونسى أو كلما حاولوا تحديد جذورهم التاريخية. فالمصطلحات التى استعملها الأوربيون فى حديثهم عن البدو لم تكن موحدة بل اختلفت حسب الفترات الزمنية وحسب ما تراءى لهم من نمط عيش هذه المجموعات البشرية فى ترحالها أو فى استقرارها. ولعل عبارة «العرب» هى الأكثر استعمالاً على امتداد العصور وإن كانت فى دلالاتها تختلف عن عبارة «الأعراب» أو «العربان» التى غالباً ما كان يطلقها سكان الحواضر على سكان البوادرى والأرياف. كما أن نطق بعض المخارج الصوتية كان يحول هؤلاء الغربيين دون إبراز الفوارق بين مختلف العبارات. فاستعمالات عبارة (s) Arabe الدارجة فى كتب الرحالة لا تفرق بين «عربى» و«أعرابى» و«أعراب» والحال أنّ هذه العبارات لها دلالات مختلفة لا يقف على دقتها إلا من كان عارفاً بخفايا اللغة العربية. وربما عجز حتى المستشرقون منهم على تحديدها. فمثلاً، يتحدث Shaw فى بداية القرن ١٨ عن «العرب المتشردين» أو «العرب قطاع الطرق» دون أن يحدد المناطق التى يقطنها هؤلاء. بل يضيف أنّ «هؤلاء الحرايمية<sup>(١)</sup> الذين ننعتمهم فى بلادنا بالعرب المتوحشين.. شأنهم شأن

(١) استعمل عبارة «Haramees»، وهى عبارة شرقية.

كلّ العرب دون استثناء، متساوون وتحدهم الطباع الخبيثة نفسها كلما توفرت لهم فرص السطو والقتل»<sup>(١)</sup>.

وفي السياق نفسه، لا يفرق قارئ كتاب الأب Poiret<sup>(٢)</sup> بين العرب والبربر من سكان المناطق الشمالية الحدودية بين تونس والجزائر. فهذا الرحالة الفرنسي يتحدث عن سكان شمال إفريقيا مستعملا عبارة «Arabes» وهو في حقيقة الأمر يتحدث عن «الأعراب» الرحل من القبائل التي تنتقل داخل المنطقة<sup>(٣)</sup>. فتختلط المفاهيم في ذهن القارئ الذي لا يتسنى له أن يفرق بين «العرب» الحضريين و«الأعراب» أو «العربان» من القبائل العربية والبربرية. أمّا عبارة «بدوى» «Bédouin» فلم تكن دارجة إلى حدود القرن ١٩<sup>(٤)</sup>. استعملها Peyssonnel<sup>(٥)</sup> في تصنيفه للمجتمع التونسي إذ يتحدث عن: «البدو والعرب الفلاحين الذين يمثلون الطبقة الوضيعة من المجتمع»<sup>(٦)</sup>. إلا أنه يتحدث عن «البدو أو المور الذين يسكنون الريف» في مواضع أخرى من الكتاب وتحديدا عندما يصف نمط عيش البدو<sup>(٧)</sup>. أمّا Venture De Paradis<sup>(٨)</sup>، فقد استعمل عبارة البدو مثلما سمعها عن سكان الحاضرة «مثلما يقول أهل البلاد». ثم كتبها مثلما نطقها «Bedvois». وقد حاول تدارك العجز في النطق فأضاف مباشرة بعدها «أو العرب الذين يسكنون الخيام»<sup>(٩)</sup>. ولم تصبح هذه العبارة دارجة إلا خلال الفترة الاستعمارية.

(1) Shaw (T), Travels observations... op. cit., t. 1, introduction.

(٢) زار تونس سنة ١٧٨٩م وجاب كامل المناطق الشمالية الحدودية بين تونس والجزائر.

(3) Abbé Poiret, Voyage en Barbarie ou lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785/ 1786... Paris 1789, p. 54.

(٤) حسب المعجم الفرنسي Le petit Robert دخلت هذه العبارة إلى اللغة الفرنسية في حدود سنة ١٥٤٦م وتعنى عرب الصحراء الرحل.

(٥) زار تونس سنة ١٧٢٤م في إطار بعثة علمية قادته عبر إيالتى تونس والجزائر. وهذا العالم في النباتات قدّم إلى جانب دراسته لكل أنواع النباتات والأشجار التي صادفها في طريقه، وصفا دقيقا لنمط عيش التونسيين آن ذاك.

(6) Valensi (L), J.A Peyssonnel, voyage dans la Régence de Tunis et d'Alger, La Découverte, Paris 1987, p.79.

(7) Ibid., p. 81.

(٨) مستشرق، شغل منصب مترجم بالقنصلية الفرنسية المعتمدة في تونس ما بين ١٧٨٠م - ١٧٨٦م وشارك سنة ١٧٩٨م في الحملة الفرنسية على مصر.

(9) Cuoq (J), Venture De Paradis, Tunis et Alger au XVIIIè S, Paris 1983, p.49.

كما صنف الرحالة الأوربيين البدو من بين الـ Maures. وهذه العبارة استعملت على مختلف العصور لنعث شعوب ومجموعات متعددة في بلاد المغرب. فالإغريق استعملوا عبارة Moros فى حديثهم عن البربر سكان شمال إفريقيا واستعمل الرومان Mori للمجموعة نفسها. كما نعث بها المسيحيون مسلمى أسبانيا «المورسكيون» Moriscos. ومنذ انتصاب الحكم التركى بتونس أصبحت عبارة Maures تعنى فى السياق المجموعة التركية التى قدمت إلى تونس فى خضم الصراع العثمانى الأسباني. ويختلط الأمر لدى أبى الحسن الوزان<sup>(١)</sup>، إذ إنه يعتبر بعض سكان المناطق الصحراوية المتاخمة للأراضى الليبية، وهم من «العرب الرحل يعيشون هناك حفاة عراة، أقرب إلى المور - الذين يسكنون العاصمة - من غيرهم»<sup>(٢)</sup>. ونظرا لهذه الصعوبة فى تحديد مصطلح موحد يطلق على البدو رحلا كانوا أو مستقرين حاول أغلب الرحالة الأوربيين تقريب الفهم لقرائهم معتمدين على عبارات غريبة تؤدى معنى نمط عيش هذه المجموعات. فاستعملوا: Ruraux (ريفيون) Pastoraux (رعاة رحل) Bergers (رعاة مستقرون) Nomades (الرحل المتنقلون وغير المستقرين). أو أنهم صنفوهم حسب مناطق استقرارهم أو مجالات ترحالهم. فتحدث البعض عن Les Montagnards «الجبالية» (وهم سكان جبال عمدون ومقعد الفاصلة بين تونس والجزائر) أو «الشلوح» وهم بدو المغرب الأقصى و«القبائل» Les Kabyles أى سكان منطقة القبائل بالجزائر<sup>(٣)</sup> أو الصحراويين Les Sahraouis وهم سكان الصحراء الذين يذكروهم De Paradis بقوله: «وهم سكان المناطق المتاخمة للصحراء فى شريط هائل يمتد من تافيلات بالمغرب الأقصى إلى

(١) هو أبو الحسن الوزان من مدينة فاس المغربية. أصبح يعرف بليون الإفريقي Léon l'Africain بعد أن وقع أسيرا بين يدي المسيحيين وتنصر فى روما فى حدود سنة ١٥٢٠م.

(2) Léon (l'Africain), De l'Afrique, contenant la description de ce pays, t.1, traduit par Jean Temporal, Paris 1830, p. 210.

انظر الترجمة العربية: الحسن بن محمد الوزان الفاسى، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامى، ١٩٨٣م.

(٣) «يلقب سكان الجبال بالمغرب الشلوح والقبائل بالجزائر. أما بتونس فيلقب البدو من سكان الجبال، الجبالية وخاصة أولئك الذين يقطنون الجبال الساحلية الشمالية وجبال الكاف الذين يغطون رؤوسهم ويتركون لحاهم وبهذا يختلفون عن الشلوح والقبائل وعن الوسلاتيين (سكان جبل وسلات) الذين يحلقون لحاهم ويتركون شواربهم ورؤوسهم عارية يحلقون جوانبها ويتركون خصلة شعر فى أعلى همهم».

Cuoq J), Venture De Paradis...op.cit. . p. 49.

مملكة طرابلس»<sup>(١)</sup>. أو سكان الواحات Les Oasiens وهي المنطقة التي يحددها Thomas Shaw «من المحيط الأطلسي إلى مصر والتي يسميها جغرافيو هذا العصر ببلاد الجريد وهي العبارة التي تعنى بالعربية بلاد الجفاف»<sup>(٢)</sup>.

قد يعود الخلط بين كل هذه المصطلحات إلى عدم قدرة هؤلاء الأوربيين على تحديد موقع هذه الشريحة من المجتمع التونسي والمغاربي إجمالاً وخاصة إلى اختلاف أرهاط البدو والقبائل البدوية التي صادفوها في طريقهم عرباً كانوا أو بربراً. فهي تارة مجموعات صغيرة مغيرة و«متوحشة» وتارة قبائل مستقرة في مكان واحد في خيام أو في منازل من الطوب داخل قرى صغيرة (الدوار) أو متنقلة من مكان لآخر بحثاً عن الكلاً والمراعى أو المتاجرة بين مناطق جنوب الصحراء وبقية تراب البلاد التونسية.

ذلك ما يبرز أن العنصر البدوي لم يكن موحداً في تونس وفي المغرب العربي إجمالاً حيث إن البدو اختلفوا باختلاف مواطن استقرارهم وترحالهم، جبلاً كانت أو سهولاً أو سباسب أو مناطق صحراوية. و بالتالي تفاعل كل عنصر مع البيئة التي انتمى إليها. فاختلفت عاداتهم وتقاليدهم، إلى جانب اختلاف لهجاتهم التي تنحدر من البربرية<sup>(٣)</sup> أو من العربية. وكانت في بعض الأحيان خليطاً بين اللغتين.

أمّا عن جذور البدو التاريخية فقد حاول الرحالة الأوربيين تحديدها اعتماداً على المصادر الغربية من كتب المؤرخين الرومان (Tite live, Aristophane, Augustin, Cicéron, Strabon,) والمصادر الدينية (الأنجيل والقرآن) وبعض المصادر العربية (الإدريسي والبكري وابن حوقل وابن خلدون). أو أنهم اعتمدوا على اشتقاق بعض الأسماء. فقبيلة «الناماشة» التي اتخذت مجالاً لها على امتداد قرون عديدة المنطقة الحدودية التونسية الجزائرية، أوحث

(1) Ibidem.

(2) Shaw (T), Travels observations... op.cit., t.1, p. 3.

(٣) يذكر ابن خلدون لهجة البربر فيقول: «... ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم...» ويضيف أنّ «إفريقيش بن صفيان من التابعين لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم... تعجب من ذلك وقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر. والبربر بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة...» ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١م، ج ٦ ص ١١٧.

إلى Marmol<sup>(١)</sup> بعبارة Numides. وقد اعتبرهم «السكان الأصليين لشمال القارة الإفريقية» ومن هذه التسمية اشتقت عبارة «Nomades»<sup>(٢)</sup>. واعتمد الدبلوماسي الفرنسي De Paradis على التفسير نفسه إذ اعتبر أن «النوميديين خلدوا اسمهم في قبيلة كبيرة تسمى إلى يومنا هذا النمامشة تقطن منطقة تبسة على الحدود الجزائرية التونسية، وهي من أصل بربري»<sup>(٣)</sup>. ويضيف Marmol أن «هذه القبائل من الرحل استقروا في بادئ الأمر في المناطق الغربية من شمال إفريقيا وتفرقوا فيما بعد في مناطق عديدة... وقد سكنوا الأرياف في شكل مجموعات تحت الخيام لأنهم يمتلكون قطعانا هائلة من الماشية... إلا إنه على مر الأزمنة حدثت بينهم حروب عديدة سيطرت على إثرها بعض القبائل على السهول واضطرت القبائل المنهزمة إلى اللجوء إلى الجبال حيث اختلط أهاليها بالأفارقة الأولين وقلدوهم في بناء المنازل لاتقاء تقلبات الطبيعة»<sup>(٤)</sup>.

أما Thomas Shaw، وقد نقل عنه جل رحالة القرنين ١٨ و ١٩، فقد نسب البدو العرب إلى إبراهيم جد اليهود والمسيحيين الذي انحدر منه فرع اليهود عن طريق زوجته سارة وفرع العرب عن طريق جاريتة هاجر<sup>(٥)</sup>.

ومن ناحيته، اعتبر Guérin<sup>(٦)</sup> أن «العرب الذين يسكنون تحت الخيام كانوا قبيل مجيء الأتراك أكثر عددا من سكان المدن والقرى. إلا أن سياسة القمع التي توخاها الأتراك

---

(١) أسباني الأصل، شارك في الحملة التي قادها الملك الأسباني شارلكان ضد تونس سنة ١٥٣٥م ومكث هناك مدة عشرين سنة. ثم وقع أسيرا واقتيد إلى المغرب الأقصى حيث مكث ما يناهز السبع سنوات ذلك عندما سمح له أن يكتشف عن كئيب كامل شمال إفريقيا ومصر حيث تنقل صحبة قوافل تجارية مغربية.

(٢) «لقب الإغريق سكان الصحراء الليبية Nomades واللاتينيون Numides وهم يقطنون الخيام مثل العرب ويتنقلون من هنا وهناك على ظهور جمالهم».

Marmol, L'Afrique de Marmol, traduction Nicolas Perrot, 3 tomes, Paris 1667, t. 1, p. 73.

(3) Cuoq (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 49.

(4) Marmol, L'Afrique de Marmol, t. 1, p. 68.

(5) Shaw (T), Travels observations... op. cit., t. 1,

ذلك ما يؤكد ابن خلدون الذي ينسبهم إلى «ولد كنعان بن حام بن نوح...» انظر ديوان المبتدأ... المصدر نفسه، ج ٦ ص ١٢٧. وذكر كذلك أن «إفريقيش بن ضبيع الذي سميت به إفريقية ترك كاتمة وصنهاجة من قبائل حمير بعد غزوه لشمال إفريقيا فاستحالت طبيعتهم إلى البربر واندرجوا في إعدادهم...» المصدر نفسه، ص ١٧.

(٦) مختص في علم الآثار. قام خلال سنة ١٨٦٠م برحلة علمية قادته عبر كامل تراب الإيالة التونسية.

تجاه أقوام البدو الرحل التي قاومتهم قلمت من عددهم حتى أصبح اليوم سكان الخيام أقل عددا من سكان المدن والقرى»<sup>(١)</sup>.

نحن إذن أمام مجموعة من المصطلحات والمرادفات المختلفة، تطورت وتغيرت عبر العصور بتغير المعطيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية: البادية والريف، البدوى والريفى والفلاح، العربى والبربرى.

ما هو إذن المصطلح الذى يتلاءم ونمط عيش «البدو»، هذا الصنف من المجتمع الذى عمر شمال إفريقيا منذ أقدم العصور قبل مجيء العرب المسلمين وخاصة قبل «الزحف الهلالى» (٤٤١ هـ / ١١٤٦ م) الذى نشر «نمط العيش البدوى» فى أرجاء إفريقية حسب المصادر العربية؟! وهل للبدو جذور عربية فحسب أم أنها تمثل «نمط عيش» قديم ارتبط فى شمال إفريقيا كما فى الجزيرة العربية بالبادية؟! وهل للبادية المفهوم نفسه على امتداد العصور؟! تجمّع المعاجم العربية<sup>(٢)</sup> «البادية بباديات وبوادي، أى الصحراء، خلافا للحضارة». والبدو يعرف «بساكن البادية من القبائل العربية الرحل». و«البدو»: هى الظاهرة الاجتماعية للعيش فى البادية.

تكتفى هذه التعاريف المختلفة بربط البدو والبادية بقفار الجزيرة العربية كما تقتصر على تعريف «البادية» بـ«البادية» بـ«البادية» وهى فى نهاية الأمر لا تحدد الخصوصيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للبدو، وحتى ابن خلدون فهو لم يسعفنا ولم يوضح أكثر من كون «البدو نوعان يجتمعان للتعاون على تحصيله (المعاش)، منهم من ينتحل الفلح من الغراسية والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الشاة والبقر والمعز والنحل والدود...»<sup>(٣)</sup>. واكتفى بتقديم وصف دقيق لنمط عيش من عاصروه من البدو. لكن، هل ينطبق ذلك على كل أصناف البدو فى كل أطراف البلاد العربية وخلال كل الأحقاب التاريخية؟

أما فى ذكره لأصول البربر فابن خلدون يتحدث عن «أجيال من الآدميين هم سكان المغرب القديم... يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر

(1) Guérin (V), La Régence de Tunis, t2, Paris 1862, 2 tomes, t. 1, p. 49.

(٢) من بينها ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة.

(٣) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة... المصدر نفسه، ص ١٦٥.

والوبر، ويضعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار. ومكاسبهم الشاة والبقر والخيل فى الغالب للركوب والنتاج وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب...»<sup>(١)</sup>.

يبدو جلياً أن ابن خلدون فرق بين صنفين من البدو: «البدو العرب» و«البدو البربر». إلا أن نمط عيشهما يتطابق بحكم ارتباطهما بالبيئة والإطار الجغرافى نفسهما. كما أن القيم الأخلاقية التى اتصف بها «البدو البربر» لا تختلف فى شىء عما نسب للعرب و«البدو العرب» على وجه الخصوص. فقد جبل البربر، حسب ما ذكره ابن خلدون، «على الخلق الكريم... من عز الجوار وحماية النزىل ورعى الأذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكارم والثبات فى الشدائد... وقرى الضيف والإعانة على النواىب...»<sup>(٢)</sup>.

البدواة إذن، هى «نمط عيش» تفاعلت فى بلورته عناصر طبيعية مادية وبشرية وحضارية. والبادية لا تعنى القفار والصحارى فحسب، أى المشهد الجغرافى، إنما هى مجال تفاعلت فيه المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لمجموعة بشرية معينة. وولدت هذه المعطيات ما يمكن التعبير عنه «بنمط العيش البدوى»<sup>(٣)</sup>. وبالتالى تكون البدواة مفهوماً متطوراً حسب العصور والأحقاب التاريخية. فأرياف العصر الحديث والمعاصر ليست البوادرى التى كانت منتشرة خلال العصور الوسطى فى الجزيرة العربية أو فى شمال إفريقيا. وبدو العصور الوسطى ليسوا ببدو الفترة الحديثة.

وفى تونس، شهدت الأوضاع السياسية منعرجا كبيرا منذ انتصاب حكم الأتراك فى المنطقة فى نهاية القرن ١٦ وخاصة منذ قيام الدولة الحسينية فى مستهل القرن ١٨ ذلك ما أثر فى المعطيات الاجتماعية والاقتصادية للبلاد التونسية التى بدورها غيرت نمط عيش السكان عموماً. فمنذ أواسط القرن ١٨ أصبح البون شاسعا بين شريط ساحلى تونسى تطورت به ظاهرة التمدن وانتشرت ظاهرة الأرياف حول المدن والقرى وبين داخل البلاد حيث

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن)، ديوان المبتدأ والخبر... المصدر نفسه، ج ٦، ص ١١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٣) «تتضمن مظاهر أنماط العيش القبلى صور التفاعل مع المجال وتخزين الثقافات مدى تقدم استغلاله رعىا وزراعة مما يسمح بالقول بأنه ليس مجرد فضاء مادى بقدر ما هو أحد عناصر تشكل الهوية» الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس فى العهد الحديث (ق ١٦ - ق ١٩)، من بدواة الجمل إلى بدواة الخروف والحوز: السباسب الوسطى مثالا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفافس، صفافس ٢٠٠٥م، ص ٥٨.

أبقت البداوة على جملة من خصوصياتها السوسيوثقافية. كما أدت التقلبات السياسية والتطورات الاقتصادية إلى تثبيت عناصر مادية وثقافية جديدة لسكان الأرياف مما أدى إلى تشكل تنظيم قبلي مميز للبلاد التونسية، تزامن مع بروز مفهوم «الهوية التونسية باعتماد مصطلحي الوطن والبلاد في تعبير الفرق والعروش»<sup>(١)</sup>.

وخلال القرن ١٩، أصبحت الأرياف تضم كل الذين يعيشون مباشرة أو بطريقة غير مباشرة من استغلال الأرض. وبرز معها مصطلح الريفي (rural) وهو ذلك الفلاح (agriculteur) الذي يقات من الفلح وهو في آن واحد البدوي الراعي (pastoral)<sup>(٢)</sup>. نوعان من الريفيين مختلفان ويتمحور الاختلاف حول نمط عيش انتشرا بكامل البلاد: «الاستقرار» للفلاحين و«الترحال» للرعاة. أما «التنظيم القبلي» فهو السائد في المجال الريفي بكل ما يحمله من خصوصيات اجتماعية وثقافية ثابتة للقبيلة التونسية. خصوصيات توارثتها الأجيال وتفاعلت في تحديدها حضارتان تنتميان إلى الإطار الجغرافي «الصحراوي» والاجتماعي «القبلي» نفسه ونعني من ذلك الحضارة العربية والحضارة البربرية.

ذلك ما يمكن أن نستشفه من مجمل آثار الرحالة الأوربيين. فهؤلاء الأجانب في أبحاثهم عن الحضارة العربية الإسلامية وعن دقائق طباع السكان بدوا كانوا أو حضرا لم يولوا التعاريف المحلية والمصطلحات السائدة اهتماما بقدر اهتمامهم بالواقع الاجتماعي والحضاري الملموس «للبدو» بقطع النظر عن الجذور العربية أو البربرية للقبائل التونسية والبدو التونسيين بصفة عامة. لذلك كانت آثارهم بمثابة سيفساء من الوصف لدقائق خصائص الحياة اليومية وعادات وتقاليد «البدو» بكل أصنافهم.

### بين التوحش والتحضر:

ثنائية طغت على مصادرنا الغربية على امتداد الفترة الحديثة إذ تراوحت مواقف الأوربيين من «البدو» بين مادم وقادح، وإن غلبت عليها، في نهاية الأمر، تلك الصورة

(١) المرجع نفسه، ص ٤٨.

(2) Chrif (M.H), «Les mouvements paysans dans la Tunisie du XIX è siècle», in Revue de l'Occident musulman et la Méditerranée, n° 30, 2ème sem. 1980.

القائمة للبدو التي رسمها كل الذين زاروا البلاد التونسية. ففي حين يتراءى البدوى للرحالة الأوروبيين في صورة تقترب أكثر إلى الوحشية منها إلى الإنسانية، فهو في آن واحد يعيش على فطرته ويختزن ما توارثته الأجيال من قيم أخلاقية يمتاز بها عن بقية سكان المدن.

إن هذه الصور لا تعدو أن تكون امتدادا للمواقف السلبية التي حملها الأوروبيون في حقائب رحلاتهم عن البدوى والبادية. وهي عبارة عن أحكام مسبقة انتقوها من مدونة غربية نسجها في بعض الأحيان المخيال الأوربي عن سكان شمال إفريقيا بل عن العرب والشرقيين عموما. هي صورة توارثتها الأجيال على امتداد قرون من الصراع الإسلامي المسيحي على سواحل المتوسط شحذتها الاختلافات الحضارية التي لامسها الرحالة الأوروبيون على أرض الواقع. فمجموع العادات والطباع والعلاقات الإنسانية واختلاف المظهر الخارجي للبدو، مقارنة بما تعود عليه هؤلاء في الشكل ولون البشرة واللباس، باتت لديهم مدعاة إثارة وموضوع دراسات دقيقة كان للنظرة الأوربية «المركزية»<sup>(١)</sup> دور في بلورتها.

وفي هذا السياق، اعتبر Laugier De Tassy<sup>(٢)</sup> في مقدمة كتابه «تاريخ أقطار شمال إفريقيا» أن الأوروبيين الذين عاصروه لا يفرقون بين سكان شمال إفريقيا<sup>(٣)</sup> والأوغاد. ويلقبون سكان هذه المناطق بكل بساطة بالحيوانات، معتبرين أنهم يفتقرون إلى ملكة التفكير وعاجزون عن صنيع أي شيء مفيد بل ربما كانت الحيوانات أفضل منهم... «إن ذكر اسم الأتراك أو المحمديين»<sup>(٤)</sup> أو العرب أو المور يوحى لهؤلاء مثل هذه الأفكار، إلا إنني مقتنع كل الاقتناع أن هؤلاء الأشخاص، ودون سابق علم، بإمكانهم أن يتعاملوا مع مسلمين

(١) ما عبرت عنه الدراسات التاريخية بـ européocentrisme. انظر:

Bachrouch (T), «Les Barbaresques de Tunis au XVII<sup>e</sup> siècle mythes et interprétations», in R.H.M, n° 31 – 32.

(٢) زار تونس سنة ١٧٢٥م. وقد حاول هذا الرحالة الفرنسي أن ينصف سكان شمال إفريقيا تجاه ما روجته كتب المبشرين المسيحيين خلال القرن ١٧ من صورة قاتمة لسكان هذه المنطقة.

(٣) إلى حدود القرن ١٨ استعمل الأوروبيون في كتاباتهم عبارة Barbarie للدلالة على شمال القارة الإفريقية وBarbaresques للدلالة على سكان شمال إفريقيا. ولهذه العبارات جذور يونانية ورومانية.

(٤) هي عبارة كثيرا ما استعملها الأوروبيون في كتاباتهم إلى حدود القرن ١٩، للحديث عن المسلمين.

عاريي الرأس بدون عمامة<sup>(١)</sup> أو «الشال» الذى يضعه البدوى فوق رأسه ، ولباس مسيحي ، ويجدون فيهم ما يمكن أن يجده لدى أى مجتمع آخر... سوف أقدم فى كتابى ما يساعد هؤلاء على إسقاط مثل هذه الأحكام المسبقة وأبين لهم أنه من بين مجتمعاتهم هنالك من هو أقل تحضرا من الذين نحن بصدد الحديث عنهم...»<sup>(٢)</sup>.

وكتب الرحالة الفرنسى Chabrol فى الفترة نفسها: «غريب كم نحن فى أوربا غير عادلين تجاه العرب إذ نعتبرهم متوحشين وشرسين. لقد عاشرناهم لمدة طويلة ونحن شاهدون على مودتهم وفطرتهم التواقة للخير وخصالهم الطبيعية...»<sup>(٣)</sup>.

لهذه النظرة الدونية للبدو علاقة مباشرة بالفترة الزمنية التى زار فيها الرحالة الأوربيون البلاد التونسية، إذ إن الفرق واضح بين الأوائل الذين وصلوا إلى شمال إفريقيا خلال القرنين ١٥ و١٦ فى ظروف صعبة، إما بمثابة أسرى القراصنة أو تابعين للكنيسة الكاثوليكية مكلفين بتحرير العبيد، والعدد الكبير من الرحالة الذين زاروا البلاد التونسية خلال القرن ١٩ بمحض إرادتهم أو فى إطار بعثات علمية.

لم تكن الرحلات الاستطلاعية والعلمية دارجة فى بداية الفترة الحديثة وجل الأوربيين الذين تركوا لنا آثارا مكتوبة كانوا من بين ضحايا القرصنة وقد أجبروا على العيش لمدة معينة (بلغت فى بعض الأحيان عدة سنين) فى السجون المخصصة للعبيد أو فى قصور المسؤولين السياسيين، أو كانوا من بين رجال الكنيسة الذين قدموا لتخليص «العبيد البيض» ودفع فدية لتحريرهم. لذلك، لعبت حركة القرصنة داخل حوض البحر الأبيض المتوسط دورا مهما فى احتداد العلاقات بين الدول الأوربية والإبالتين العثمانيتين تونس والجزائر وفى تشويه صورة سكان شمال إفريقيا لدى الأوربيين قاطبة. إضافة للمرجعية الدينية السائدة آن آنذاك والتى تعتبر العرب والمسلمين قاطبة أعداء الكنيسة والمسيحية. فعلقت فى أذهان الأوربيين أبشع صورة للقرصان المسلم الذى يشهر سيفه فى وجه المسيحيين، يقطع

(١) وتعنى عبارة turban التى استعملها، «الشاشية» الحمراء التى يضعها التونسيون على رؤوسهم.

(2) Laugier De Tassy, Histoire des Etats barbaresques qui exercent la piraterie contenant l'origine, les révolutions et l'état présent des royaumes d'Alger, de Tunis de Tripoli et du Maroc... Amsterdam, 1725.

(3) In, Sarga (M), «L'image des Bédouins dans la description de l'Égypte», <http://ema.revues.org/index/638.html>.

طرقهم البحرية فيسطو على تجارتهم ويؤسر رجالهم ويسبي نساءهم. لذلك امتزجت صورتا «القرصان» و«المسلم» فى الحديث عن كل الذين ينتمون إلى شمال إفريقيا وكل المسلمين أينما حلوا<sup>(١)</sup>.

أما خلال القرن ١٨ فقد لعبت فلسفة التنوير دورا كبيرا فى توجيه نظرة الأوربيين للبدو بصفة خاصة؛ إذ أصبح الرحالة الأوربيون يبحثون من بين هذه المجموعات المنتشرة فى ربوع البلاد عن «إنسان الطبيعة» الذى ينعم بالحرية الطبيعية، مثلما روج ذلك فلاسفة الأنوار دعاة الحرية وعلى رأسهم Jean Jacques Rousseau. ذلك ما رسمه الأب Poiret<sup>(٢)</sup> فى رحلته إلى الشمال التونسى حيث كتب فى إحدى رسائله «لقد تجاهلت الصورة التى سبق أن رسموها لى عن «العرب» وعن عاداتهم ووحشيتهم وحاولت إقناع نفسى بأن الإنسان كلما اقترب من الطبيعة كان عليه أن يزداد طيبة. وهنا، لم أعد أشاهد فيهم إلا أولئك الجدود الأولين المنهمكين فى رعى قطعانهم لا تثنيهم عن ذلك الحاجة إلى الترف والطمع...»<sup>(٣)</sup>.

وبحلول القرن ١٩، أصبح الرحالة أكثر واقعية ولم يتعاملوا مع «سكان الخيام» و«سكان الدواوير»<sup>(٤)</sup> من منطلق أفكار مسبقة بل اعتمادا على ما شد انتباههم على أرض الواقع من نمط عيش ميز هذه الشريحة من المجتمع التونسى عن سكان المدن. كما اهتموا خاصة بالصراع شبه المتواصل بين السلطة والقبائل المستعصية. فبدأت آثار رحالة القرن ١٩ أكثر إثارة وطرافة من غيرها؛ إذ قدمت لنا وصفا دقيقا عن حياة البدو أينما سكنوا وأينما حلوا. إلا أن صورة الوحشية للبدو تبقى سائدة لدى جل الرحالة على امتداد العصور واعتبر جلهم أن التوحش والهمجية متأصلة فيهم إذ إنهم جبلوا على الشر ومعاداة كل أشكال التحضر. وقد حاول كل واحد من موقعه أن يعلل هذا التصرف وهذه الوحشية.

---

(١) كتب الأب Dan سنة ١٦٣٧م، وهو أحد أشهر مفتديي (Rédempteurs) رجال الكنيسة الكاثوليكية، أن «الأترك والعرب والمور وشعوب أخرى محمدية سُحروا بعقيدة مقيتة شجعتهم على استباحة المسيحيين بطرق شتى». Dan (Pierre), Histoire de Barbarie et de ses Corsaires, des Royaumes et des villes. d'Alger, de Tunis, Salé et Tripoli. Pierre Rocolet, Paris, 1637, p. 27.

(٢) من أشهر فلاسفة عصره. وهو من رواد فلسفة روسو.

(3) Poiret Abbé, Voyage en Barbarie... op.cit., p. 229.

(٤) الدواوير هى تجمعات سكنية صغيرة لبعض القبائل المستقرة التى بنت منازلها من الطوب والقش أو من الخيام.

يعود ذلك بالنسبة للبعض للإطار الطبيعي الذي يعيش فيه البدو والمتمثل في الأراضي القاحلة الموحشة. فالصحارى التي يعيشون فيها أو حتى الغابات الجبلية هي مناطق فارغة طبيعياً أو لا تمت للحضارة بأية صلة وبالتالي هي خارجة عن أى إطار إنسانى وتاريخى «anti - historique» وتنسب إلى الحيوانية.

وفى هذا الصدد، صور Poiret البعض من سكان الجبال الحدودية بين الجزائر وتونس. فذكر أن «هؤلاء المساكين ينسحبون إلى العيش داخل غابات لا يمكن اقتحامها ويسكنون فى مغارات على سفح منحدرات جبلية رهيبة ويعيشون فى انعزال تام بعيداً عن المناطق الحضرية ويقتاتون من الثمار الطبيعية وعروق الأشجار الرطبة وبعض الحيوانات. إنهم أكثر العرب شراسة ولا أشك أن يكون بعضهم من آكلى لحوم البشر (anthropophage) نظراً لشدة جوعهم وشرهم للدم الإنسانى...»<sup>(١)</sup>.

أما Shaw فقد اعتبر أن «حياة الترحال ومعاملة الأتراك الجائرة لهؤلاء البدو منعتهم من التحضر والتعلم»<sup>(٢)</sup>. وبصفة عامة ركز جل الرحالة الذين زاروا تونس خلال القرنين ١٨ و ١٩ على جور السلطة تجاه القبائل داخل وجنوب البلاد مما دعاها إلى التصرف بكل وحشية ومهاجمة ممثلى السلطة. وبذلك يتمثل البدوى لهؤلاء الأجانب بطبعه الحاد وعداوته المتأصلة للتحضر. إضافة إلى الصورة التى ما فتئت السلطة تروجها عن هؤلاء «الهمج» وحالة التعالى للتحضر على سكان البوادي والأرياف<sup>(٣)</sup>.

هل تختلف هذه الصورة القاتمة عما ذكره ابن خلدون نفسه عن البدو بصفة عامة؟! كتب صاحب المقدمة فى الفصل الثانى من الكتاب الأول حول «العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض فى ذلك من الأحوال»: «واضطروا إلى إبعاد النجعة وربما زادتهم الحامية عن التلول أيضاً فأوغلوا فى القفار نفرة عن الضعة منهم فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً وتنزلوا من أهل الحضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوانات وهؤلاء هم العرب وفى معنائهم ضوا عن البربر وزناتة بالمغرب...»<sup>(٤)</sup>. وفى ذكره للزحف الهلالى، يؤكد ابن خلدون على «اضطراب أمر إفريقية وخراب عمرانها وفساد

(1) Poiret Abbé, Voyage en Barbarie... op.cit, p. 228.

(2) Shaw (T), Voyages..., op. cit., p. 338.

(٣) الباهى (مبروك)، القبيلة... المرجع نفسه، ص ٦١.

(٤) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة... ص ١٥٢.

سابلتها» لما عطفت جحافل القبائل العربية «على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركبتها قاعا صفصافا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير...»<sup>(١)</sup>.

كما أنه اعتبر البدو أكثر الخلق عداوة للتمدن في فصل خصه فيقول: «إن العرب إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب». وسبب ذلك «أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خُلُقًا وجبلة وكان عندهم ملذوذًا لما فيه من الخروج عن ربة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له...»<sup>(٢)</sup>.

في حين أن ابن خلدون حاول أن يعلل «طبيعة التوحش» التي «جبل» عليها البدو بأن اعتبر «نكد العيش وشظف الأحوال وسوء الموطن» حملهم «على التوحش في القفر»<sup>(٣)</sup>، فإن جل المخبرين التونسيين للفترة الحديثة أوغلوها في معاداتهم للبدو وصوروهم في أبشع صورة دون تقديم أى تعليل لموقفهم من هذه الشريحة من المجتمع<sup>(٤)</sup>. فابن أبي دينار ما فتئ يتحدث عن «زريعة الخبث والأصل اللثيم أولاد سعيد»<sup>(٥)</sup> لا أسعدهم الله لأن طبعهم هو الفساد في البلاد ويهلكون الحرث والنسل والله لا يحب الفساد...»<sup>(٦)</sup>. وابن أبي الضياف يطالعنا في كتاب الإتحاف بسجل من المصطلحات تتضمن عشرات العبارات التي تؤسس خطاب انتقاص لبدو الإيالة التونسية خلال القرن التاسع عشر، على غرار «العربان» و«أجلاف البوادي» و«نواجع العربان» و«عربان البوادي» و«أوغاد الجبل»... وهذا الموقف من البدو و«العربان» يمثل، دون شك، الموقف الرسمي للسلطة ونتاج تعالي سكان الحضرة الذين يعتبرون هذه الشريحة من المجتمع التونسي تعيق أى شكل من أشكال «التمدن» مثلما روجت لذلك النظرية الخلدونية. كما أنها غالبًا ما أشهرت سيف العصيان في وجه السلطة المركزية وممثليها داخل البلاد، لذلك بدت معادية لأى شكل من أشكال التنظيم السياسى وموغلة في الهمجية.

(١) ديوان المبتدأ والخير... المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٧.

(٢) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة... «فصل في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضرة» ص ١٥٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) يعتبر مبروك الباهي أن «مدونة العصر الحديث (مقارنة بسالقتها الوسيطة) ليس لها مسوغ غير الخلفية السياسية الموروثة لاسيما أن اكتساح العالم البدوى بداخل الإيالة كان من أبرز ما عزمت على إنجازها السلطة التركية منذ العهد المرادى»، الباهي (مبروك)، القبيلة في تونس... المرجع نفسه، ص ٦١.

(٥) وفي موضع آخر ينعته «بأولاد تعييس الذين لم يكن لهم رئيس إلا إبليس...» المؤنس... المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٨.

## البداءة التونسية قبيل الاستعمار الفرنسى:

تبدو دراسة البداءة فى تونس خلال القرن ١٩ على غاية من التعقيد لتداخل الرواسب التاريخية للبدو وتطور ظاهرة البداءة نفسها على امتداد العصور والواقع السياسى للبلاد الذى حددته آنذاك علاقة السلطة المركزية بالمجموعات البدوية المنتشرة فى أرجاء الإيالة. على أن الدراسات التى تناولت موضوع البداءة فى تونس الحديثة قدمت بحوثا تنم عن جهود كبيرة لتحديد الخصائص الاجتماعية للقبائل البدوية التونسية خلال تلك الفترة. ولعل أبرز هذه الدراسات أطروحة Lucette Valensi<sup>(١)</sup> التى أقدمت على عمل ضخم التجأت خلاله إلى «تقارير لجان شئون الأهالى المحليين» الاستعمارية المتعلقة بقبائل الوسط التونسي وبالتحديد قبائل جلاص والهمامة، ووظفتها فى نظرة عامة وشاملة لكل القبائل التونسية معتمدة على نمط فرضى من العلاقات الاجتماعية القارة قوامه النظرية «الانقسامية» القائمة على مبدأ «القراية الدموية» و«الجهاز الجنىالوجى» فى تحديد أسباب «التحام وانشطار القبيلة التونسية».

أما دراسة مبروك الباهى حول «القبيلة فى تونس فى العهد الحديث» فقد جاءت أكثر ديناميكية؛ إذ تتبعت بكل دقة ظاهرة تطور البداءة بتونس من الاعتماد على الجمل الذى مثل تاريخيا الوسيلة الرئيسية لترحال البدو عبر المناطق الصحراوية، إلى تربية قطعان الخرفان، مما شكل مرحلة استقرار البدو معتمدين فى ذلك على نمط جديد فى «الحوز» وملكية الأرض<sup>(٢)</sup>.

هذا إضافة إلى عدد كبير من الدراسات والمقالات التى خاضت بدورها فى «التاريخ الاجتماعى القبلى» خلال الفترة الحديثة وشكلت فى مجملها قوام المدرسة التونسية فى كتابة تاريخ هذه المجموعات البشرية<sup>(٣)</sup>.

لا نروم فى بحثنا هذا الخوض فى هذه الأطروحات النظرية بل سنقتصر على عرض للمشهد الذى صورته الرحالة الأوربيين لانتشار القبائل التونسية خلال القرن ١٩ وذلك

---

(1) Valensi (L), Fellahs tunisiens, l'économie rurale et la vie des campagnes aux XVIII è et XIX è S. Mouton - Paris 1977.

(٢) الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس... المرجع نفسه.

(٣) الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس... المرجع نفسه، ص ٣٩.

فى مجال جغرافى حددته المعطيات السىاسية الجديدة التى تولدت عن انتصاب حكم الأتراك بتونس منذ نهاية القرن ١٦ ، وتدرج نحو بناء فضاء اجتماعى ثقافى تشكلت فى صلبه القبيلة التونسية. ونصبو من ذلك إلى تتبع دينامىكية تطور البداوة ونمط العيش القبلى فى تونس الحديثة داخل إطار جغرافى وسىاسى محدد، اعتمادا على شهادات مجموعة من الغربيين.

### ثنائية المجال الجغرافى والمجال السىاسى:

منذ انتصاب حكم الأتراك بتونس فى نهاية القرن ١٦ ، ارتبط المجال الجغرافى التونسى ، وبالتالى الفضاء الذى تتحرك داخله المجموعات القبلية والبداوى بصفة عامة ، بالمجال السىاسى وذلك لأمرين: لاختلاف نظام الحكم بتونس وبالجزائر من ناحية، والنظام الجبائى الذى فرضته السلطة على سكان البلاد. فالمجال الجغرافى مثل فضاء ماديا حدد نمط إنتاج القبائل التونسية وعلاقاتها الاجتماعية. أما المجال السىاسى فقد تشكل على بناء العلاقات الجديدة للإيالة التونسية مع جيرانها، الجزائر وطرابلس، وتحديدًا منذ نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر سنة ١٨٣٠م، مما أجبرها على ضبط الحدود بينها وبين جيرانها. وحددت سياسة العائلة الحسينية الجبائية المحففة التى فرضتها على المجتمع البدوى من ناحيتها مجال تحركه بين مختلف مناطق البلاد.

ومن خلال قرائننا لآثار الرحالة الأوربيين، لاحظنا أن جل الذين زاروا الإيالة التونسية منذ القرن ١٨ انطلقوا فى وصفهم للبلاد من ترابط هذين المجالين وقد مثلا حدودا تشكلت وتفاعلت وتطورت داخلهما كل القبائل التونسية منذ سقوط دولة الحفصيين وانتصاب حكم الأتراك وتحديدًا منذ قيام الدولة الحسينية سنة ١٧٠٥م.

### (أ) من البادية إلى الريف:

عندما زار Marmol شمال القارة الإفريقية فى بداية القرن ١٦ كان النفوذ الحفصى يمتد من تخوم «موريتانيا القيصرية»<sup>(١)</sup> غربا وقسنطينة من الشمال الغربى إلى حدود مصر شرقا وسواحل البحر الأبيض المتوسط. أما جنوبا فالتراب التونسى كان يتوغل فى الصحراء

(١) حدود هذه المنطقة غير واضحة وقد ورث الرحالة الأوربيون هذه التسمية عن المؤرخين الرومان للدلالة على المناطق الوسطى لشمال القارة الإفريقية، ما يقال حاليا الجزائر.

الكبرى إلى حدود منطقة الزاب وجبال الأطلس الصحراوى. وقد قسمها هذا الرحالة إلى مقاطعات أربع: قسنطينة وتونس وطرابلس والزاب<sup>(1)</sup>. إلا إنه اكتفى بوصف أكبر المدن الساحلية وأهم المناطق الداخلية «للمملكة التونسية» التي اعتبرها «مناطق شاسعة شبه قاحلة تنتقل فيها مجموعات كبيرة من أشد العرب والأفارقة، عجز ملوك وسادة هذه البلاد على ترويضهم وضمهم إلى صفوفهم وإرضائهم...»<sup>(2)</sup>.

اقتصرت آثار الرحالة الأوربيين في بداية الفترة الحديثة إذن على وصف شامل لكامل تراب البلاد التونسية وتتبع المسالك التجارية الصحراوية أو الساحلية الرابطة بين المدن التونسية ومختلف مناطق البحر الأبيض المتوسط أو الداخلية الرابطة بين المشرق والمغرب والمارة عبر أكبر المدن. وأكدت كتب الرحالة من ناحية ثانية على الفراغ العمراني للمناطق الداخلية نظرا لفقر مناطق السباسب وسفوح الجبال التي مثلت مجالا مفتوحا للبدو الرحل المتنقلين حسب الفصول من الجنوب نحو الشمال ومن الغرب نحو الشرق ذهابا وإيابا. ولعل أبرز ما يلفت الانتباه هو المشهد الجغرافي الموحش لهذه المناطق القاحلة التي تضمن عيش «مجموعات متوحشة من البدو الرحل تنتقل في شكل جماعات صغيرة أو قبائل كبيرة تنتقل مع بعضها بين أرجاء البلاد...». ويحاول Marmol أن يعلل وجود هذه المساحات الهائلة من الأراضي القاحلة في مناطق كانت قديما أهلة بالسكان. فاعتبر أن «العرب خربوا معظم المدن الرومانية القديمة عندما قدموا إلى إفريقية دون أن يهتموا بإعادة تعميرها حتى يتمكنوا من التنقل بحرية بقطعانهم ويغنموا بكل راحة من خيرات الأرياف. وبذلك اندثرت هذه المدن نهائيا وبقيت بعض الآثار لتروى ذاكرة تلك الحضارات الغابرة...»<sup>(3)</sup>.

من خلال هذا المشهد تتراءى لنا «البادية التونسية» بعنصريها الجغرافي والبشري في علاقة وطيدة بين الإنسان والإطار الطبيعي. فقد فرض البدو الترحال كنمط عيش معاد «للعمران» على امتداد مراحل تاريخ شمال إفريقيا بصفة عامة. وإن تمكن الرومان من صد القبائل البدوية البربرية وإجبارها على الاستقرار داخل المدن التي شيدها أو التراجع إلى

(1) Marmol, L'Afrique de Marmol, op. cit., t. 1, p. 430.

(2) Ibid., p. 432.

(3) Ibid., p. 444.

تخوم الصحارى، فإن الهجرات المتتالية للقبائل العربية لشمال القارة الإفريقية فرضت نمط العيش البدوى الشرقى الذى جلبته معها من فيافى الجزيرة العربية ونشرته فى كامل المنطقة وتحديدا فى ربوع إفريقيا وتأقلمت فى إطار جغرافى كان من قبل موطن البدو البربر.

ولعل التفسير الذى قدمه Marmol وغيره من الرحالة الأوربيين والمتعلق بالفراغ العمرانى والحضارى لمساحات شاسعة من البلاد التونسية يوافق النظرية الخلدونية فى «أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب». وقد أطل صاحب المقدمة شرحا لأسباب ذلك، إذ إن البدو العرب، حسب رأيه «أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار خلقا وجيلة... وهذه الطبيعة منافية للعمران وناقضة له فغاية الأحوال العادية كلها الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له. فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصب أثافى القدر فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ويعودونه لذلك والخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعمدوا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذى هو أصل العمران...»<sup>(١)</sup>.

وهى الصورة نفسها التى يقدمها لنا ابن أبى دینار عن طبيعة «الأعراب» فى عهد الدولة الحفصية إذ يذكر أنهم «كانوا فى أول الأمر أشد شوكة واستحوذوا على جل البلاد فكان يعسر الخلاص معهم... وأهل الجبال غالبهم عصاة، وكان صاحب المحلة يعاملهم بالمخادعة والرفق والقواد يتعقبونهم...»<sup>(٢)</sup>.

يبدو إذن أن بداوة القرون الوسطى وبداية الفترة الحديثة القائمة على نمط عيش قوامه التنقل وعدم الاستقرار، ارتبطت مباشرة بمجال جغرافى شاسع سمح للمجموعات البدوية فرض الترحال والتنقل بكل حرية من أقاصى البلاد إلى أدانيها دون قيود وضوابط. بل شكلت خطرا على «العمران» منذ أن أظهر البدو عصيانهم للسلطة السياسية المركزية المعادية للحرية المفرطة. إذ فرض عليهم نمط العيش البدوى «التقلب فى الأرض وحتم عليهم الالتجاء إلى القوة للدفاع والهجوم. كما أن الحاجة دعتهم دائما لحمل الأسلحة: ففى المناطق القاحلة، تصبح بركة ماء أو مرعى مدعاة للحرب والتخريب...»<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة... ص ١٨٧.

(٢) ابن أبى دینار المؤنس...، ص ٢٢٨.

(3) Cuoq (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 51.

ومع بداية الفترة الحديثة، تغيرت الحدود الجغرافية للبلاد التونسية بتقلص مساحتها<sup>(١)</sup>. فقد أصبحت الإيالة تمتد من «الجبال الفاصلة بين الجزائر وتونس من الناحية الغربية الشمالية». أما جنوبا فتفصل بين البلدين سلسلة جبال الأطلس التي تتوغل في الصحراء. وتحد سواحل البحر المتوسط وطرابلس الإيالة التونسية شرقا<sup>(٢)</sup>.

انطلاقا من الوصف الذى قدمه Shaw للإيالة التونسية فى بداية القرن ١٨ قسم الرحالة الأوربيون البلاد إلى إقليمين اثنين: «الإقليم الصيفى والإقليم الشتوى»<sup>(٣)</sup>، كما يشير لذلك Frank، الذى يؤكد على أن «الإيالة التونسية لم تعد تقسم إلى مقاطعات مثلما كان عليه الحال من قبل بل إلى إقليمين كبيرين: الإقليم الصيفى والإقليم الشتوى»<sup>(٤)</sup>. ويقدم Shaw وصفا دقيقا لهذين الإقليمين يتبين من خلاله أن المجال الذى تنتشر فيه البداوة اتخذ شكلا مغايرا لما كان عليه فى الفترة الوسيطة بحكم تطور نمط عيش البدو. فالإقليم الصيفى الشمالى «يحتوى على عدد كبير من المدن والقرى والدوار. كما أنه يبدو على غاية من الخصوبة ورفاهة العيش. فلنقل إن كل شىء يبدو زاهيا والأرياف ضاحكة حول منطقة «فريفة»، أى البلاد الواقعة ما بين الكاف وباجة. إلا أن المساحات الداخلية للإقليم الصيفى هى أقل خصوبة وتضعب زراعتها لأن عديد الهضاب والسباخ تقطعها...»<sup>(٥)</sup>.

أما الإقليم الشتوى الجنوبى فهو أقل خصوبة وسكانا برغم كبر مساحته. «فمناطقه الساحلية فى معظمها جافة وترابية... ويتكون داخل البلاد فى غالبته من هضاب وسباخ، ما عدا السهول الفيضية للأودية، بما فى ذلك منطقة القيروان، فهى منخفضة ومتعددة

---

(١) لم تكن للبلاد التونسية حدودا واضحة بل كانت أقرب منها إلى «الأطراف». ولم تضبط الحدود الجزائرية التونسية إلا إثر الاتفاق الذى أبرم بين الحكومتين سنة ١٦٢٨م، إلا أن القبائل الحدودية لم تحترم قط هذه الحدود. انظر: Bachrouch (T), Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au XVIIIe siècle, PUT, Tunis 1977, p. 162.

(2) Marcel (J. J), Tunis, description de cette Régence par Louis Frank, Paris 1850, P. 6.  
تولى Louis Frank خطة الطبيب الخاص لعمود باشا باى ما بين ١٨٠٤م و١٨٠٨م. ثم ترك مذكرات تولى صديقه J. J Marcel نشرها.

(3) Shaw (T), Voyages.... op. cit., p. 175.

(4) Marcel (J.J), Tunis... op. cit., pp. 75.

(5) Shaw (T), Voyages.... op. cit., p. 175.

السباح... أما خلف جبال القصرين، وصولاً إلى منطقة فرنانة وجنوباً إلى تخوم الصحراء فنحن نقطع مئات الأميال من الأراضي الجدياء»<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك، تؤكد كتب الرحالة الذين عاصروا Shaw أن هذه المناطق، برغم قساوة طبيعتها فإنها أهلة بالسكان وتتجمع فوقها العديد من القرى والدواوير ويتعاطى سكانها شتى الأعمال الفلاحية والتجارية. «القبائل الكبرى تنتقل داخلها لزراعة الحبوب وبيع خرفانها ونتاج حليبها وصوفها أو الأغصية التي تصنعها نساؤها وتشتري ما هي في حاجة إليه من الأواني الفخارية. ثم تتوغل ثانية في المناطق الصحراوية حيث تعيش على الصيد والحبوب التي اقتنتها وحليب نوقها... والمناطق المتاخمة للصحراء ليست فارغة تماماً مثلما يظن البعض، فهي تضم العديد من المدن والقرى المحصنة التي تسكنها مجموعات لا تحصى من العرب»<sup>(٢)</sup> الرحل<sup>(٣)</sup>.

وآثر رحالة القرن ١٩ الاعتماد على هذا التقسيم الثنائي في تقديمهم للبلاد التونسية وركزوا بالدرجة الأولى على التطور الذي شهدته المناطق الداخلية التي تبدو من خلال وصفهم أهلة بالسكان وتعتمد حركيتها الاقتصادية بالدرجة الأولى على النشاط الفلاحي، غراسة وتشجيراً وتربية للماشية. إضافة إلى تزويد المدن الكبرى بحاجياتها من المواد الغذائية وبعض المواد الأولية على غرار منطقة الوسط التونسي المجاورة للقيروان التي تزدهو خلال السنوات الممطرة فتجلب مناطق الرعي الخضراء القطعان العديدة التي تقودها القبائل العربية... مما يخلق حيوية غير معتادة على أبواب مدينة القيروان. فالبدو يمولونها بما تحتاجه من مواد غذائية وهي بدورها تمدهم بما هم في حاجة إليه من الصناعات اليدوية<sup>(٤)</sup>. أو المناطق المجاورة لمدينة الكاف الحدودية حيث تقام الأسواق الأسبوعية على غرار السوق التي تنظم كل يوم سبت قرب قرية «زوارين» إذ يجتمع عدد لا يحصى من العرب قدموا من مشارف القرية أو من مناطق نائية لبيع الخيول والماشية. كما يعرض الباعة الصوف والقمح والشعير وكل منتجات المنطقة. وتعرض نساء قرية زوارين

(1) Ibid., p. 236.

(٢) ويعنى بالعبارة «الأعراب».

(3) Cuop (J), Venture De Paradis, Tunis et Alger... op. cit., p. 51.

(4) Guérin (V), Voyage archéologique.. t. 2, op. cit, p. 326.

ما تنتجه من أوان فخارية»<sup>(١)</sup>. كما يتحدث Filippi من ناحية أخرى عن ثراء وخصوبة «الريف التونسي» الذي ينتج مختلف أنواع الخضر والغلل إضافة إلى الزراعات الشاسعة والغراسات البعلية والسقوية<sup>(٢)</sup>.

من خلال ما عرضته آثار الرحالة الأوربيين نلاحظ إذن حواضر الشريط الساحلي التونسي والمدن الكبرى الداخلية خلقت على امتداد الفترة الحديثة أريافا أصبحت تتعامل معها في دورة اقتصادية يتعاقد فيها المركز بالمحيط. وإن أبقّت القبائل المتنقلة من مناطق نائية على نمط عيشها البدوي وعاداتها وأعرافها البدوية فهي لجأت في نهاية المطاف إلى الاستقرار في مكان واحد حيث «أقامت خيامها وبحثت عن موارد عيش حرمتها منها المناطق الجنوبية»<sup>(٣)</sup>. ويعود ذلك إلى التحول الذي شهدته هذه المناطق، نظرا لارتباطها المباشر بنمط العيش البدوي/ القبلي الذي اعتمد منذ بداية العصر الحديث على ملكية الأرض وبالتالي إلى استقرار قبائل الشمال والوسط التونسي. ذلك ما وافق التحولات السياسية التي طبعت الفترة الحديثة بظهور مصطلحي الوطن والبلاد في تعبير الفرق والعروش وتشكل الهوية التونسية...<sup>(٤)</sup>.

### (ب) البدو والسلطة خلال القرن ١٩:

انطلاقا من القرن ١٧ تغيرت المعطيات السياسية للبلاد التونسية وأظهرت كل الأنظمة التي تتالت على الحكم رغبة ملحة في إخضاع القبائل البدوية لمشيئتها وضبط مجال تحركها. فروجت قاعدة «التخريب» التي «جبل عليها الأعراب» منذ الزحف الهلالي. وهي قاعدة اعتمد عليها أصحاب السلطة لتذويب الأعراب على «تخريب المناطق الآهلة بالسكان» وذلك لغايتين: لتسويغ سياسة الترهيب المتبعة ضدهم من جهة ولفرض الاستقرار والسيطرة عليهم وإجبارهم على دفع الجباية التي تمثل أحسن تعبير لتبعيةهم للسلطة في تونس، من

(1) Monchiciurt (C), Documents historiques sur la Tunisie. Relations inédites de Nyssen, Filippi et Calligaris (1788, 1829, 1834), Paris 1929, p. 204.

شغل الرحالة Filippi منصب قنصل مملكة سردينيا بتونس من ١٨٢٥م إلى ١٨٣٠م.

(2) Ibid.

(3) Guérin (V), Voyage archéologique. t. 1, op. cit, p. 423.

(٤) الباهي (مبروك)، القبيلة في تونس في العهد الحديث...، المرجع نفسه، ص ٥٨.

جهة ثانية<sup>(١)</sup>. فقارئ المؤنس لابن أبي دينار يخال له أن هم البايات المراديين الوحيد هو تتبع القبائل المستعصية من شمال البلاد إلى جنوبها و«كسر شوكتها» وخاصة تلك التي اتخذت الجبال الحدودية الفاصلة بين الجزائر وتونس حصنا مانعا لها أو تلك التي كانت تعتمد سياسة الكر والفر وتتوغل في القفار تحاشيا لمواجهة القوات النظامية. وقد ركز كل الرحالة الأوروبيين على هذه العلاقة العدائية بين السلطة والقبائل البدوية منذ أن سجل Marmol في بداية الفترة الحديثة «مقاومة القبائل البربرية الجبلية في منطقة قسنطينة والحدود الجزائرية التونسية للأتراك»<sup>(٢)</sup> إلى عشية الاحتلال الفرنسي عندما ذكر طبيب المحلة الألماني Gustav Nachtigal أن «البدو الرحل ذوى الخيام من الوبر لا يضمرون خيرا للحكومة...»<sup>(٣)</sup>.

ولم تكن الجباية - في حقيقة الأمر - هي الداعي الأوحد لوقوف البدو أمام السلطة المركزية. فهم جبلوا على «الخروج عن ربة الحكم وعدم الانقياد للسياسة» مثلما أشار لذلك ابن خلدون<sup>(٤)</sup>. ولعل التعليل الذى قدمه بعض شيوخ «القبائل الجبلية» لـ Pellissier عندما سأله عن سبب «حملهم السلاح فى وجه الحكومة» والحال أن قيمة الجباية المطلوبة ضئيلة هو أحسن دليل على طبيعة البدو الثائرة. فقد عللوا عصيانهم بأنهم إذا دفعوا الضريبة سنة واحدة دون معارضة «قد يعمد الباي لمضاعفتها بالسنة المقبلة. كما أنه من العار أن يدفع جبالى الضريبة حال ما يتلقى الأمر». ويضيف نائب القنصل الفرنسى بأن «تعنت بدو منطقة جبال خمير هي طبيعة كل البدو أينما حلوا، ففلاحو الصعيد المصرى لا يذعنون

(١) منع الاتفاق المبرم بين الحكومتين الجزائرية والتونسية سنة ١٦٦٨م «أن يتتبع جباة الضرائب البدو الهاريين عبر الحدود. ويعود حق جمع الضرائب للدولة المستقبلية». ذلك ما سمح لبعض القبائل بأن تغتنم وضعيتها غير القارة بالمنطقة الحدودية بأن تنتقل بين الدولتين، هروبا من دفع الجباية (T) Bachrouch, Formation social bar baresque... op. cit., p. 158.

(٢) أشار إلى ذلك Marmol في حديثه عن القبائل المستقرة في حوض واد مجردة في الشمال التونسي التي فقدت جزءا كبيرا من تحضرها المعتاد نظرا لسياسة ملك تونس القمعية تجاهها... فوجدت غايتها في الحياة نحو السرقة وقطع الطرق.

Marmol, L'Afrique de Marmol, t. 1, p. 69.

(٣) منير الفندرى، البلاد التونسية فيما بين ١٨٦٣م - ١٨٦٨م من خلال رسائل الطبيب الألماني غوستاف نختغال Gustav Nachtigal، منشورات مركز النشر الجامعى، تونس ٢٠٠٣م، ص ١٣٨.

(٤) «... عوائد التوحش وأسبابه فيهم صار لهم خلقا وجبلة وكان عندهم ملذاذا لما فيه من خروج عن ربة الحكم وعدم الانقياد للسياسة...» المقدمة... ص ١٨٧.

لدفع الميرى إلا إذا تعرضوا للضرب المبرح بالعصى»<sup>(١)</sup>. إلا أن سياسة الترهيب التى اتخذتها مختلف الحكومات تجاه العناصر البدوية، منذ انتصاب حكم الأتراك بتونس، هى التى كانت غالبا تشحذ طبيعتهم التواقفة للحرية وتدفعهم للوقوف فى وجه الحملات الموجهة نحوهم لإرضاخهم وكسر شوكتهم<sup>(٢)</sup>.

تمثلت بؤر العصيان خلال القرن ١٩ فى المناطق المتاخمة للحدود الجزائرية التونسية والصحراوية نظرا لوعورتها فى وجه الجند وصعوبة اقتحامها. فمنذ بداية القرن ١٨ لاحظ Shaw أن «المجموعات القاطنة بالمناطق المتاخمة للصحراء والبدو الرحل بصفة عامة، أحرار يصعب إجبارهم على دفع الضرائب لأنهم دائمو الحذر وعلى أهبة الفرار أو الالتجاء إلى القفار كلما علموا بقدوم الحملة»<sup>(٣)</sup>. وفى الفترة نفسها تحدث Peyssonnel عن سكان مناطق البلاد الشمالية. وحسب رأيه «ترضح بعض هذه الشعوب لحكم الباي والبعض الآخر يعيش فى حرية. وتدفع المجموعات التى تسكن السهول الضرائب كما سكان المناطق التى يسهل على جيوش الأتراك اقتحامها. أما سكان الجبال المنحدرة التى يعسر بلوغها، فهم مستقلون عن البايات فى تونس أو فى الجزائر... ولا يدفعون أية ضريبة...»<sup>(٤)</sup>.

وعن القبائل الشمالية القاطنة بالمناطق الحدودية الجزائرية التونسية نفسها يذكر Pellissier فى بداية القرن ١٩ أن «وضعيتها غير مستقرة منذ أمد طويل. فهى تدعن تارة للإيالة التونسية وتارة أخرى للإيالة الجزائرية. وفى بعض الأحيان، لا تنضوى تحت أى حكم. ذلك ما حدا بالحكومة الاستعمارية بالجزائر منذ سنة ١٨٣٦م أن تدرس المسألة الحدودية. وانتهى الأمر بأن قامت السلطة الفرنسية برسم الحدود بين الجزائر و تونس، من طرف واحد، انطلاقا من منطقة القالة عبر الجبال الشمالية دون أن يبرم أى اتفاق بين البلدين...»<sup>(٥)</sup>.

لكن يبدو أن ظاهرة العصيان لم تفتقر خلال القرن ١٩، بل آل الأمر إلى أشكال أرقى من تمرد البدو فى وجه سلطة البايات إذ أصبح الحديث عن انتفاضات عمت أرجاء الإيالة التونسية دون استثناء. ويعود ذلك بالدرجة الأولى لسياسة البايات الموغلة فى فرض

(1) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis, Paris 1853, p. 43.

(2) Leon (l'africain), De l'Afrique... op. cit., t. 2, p. 28.

(3) Shaw (T), Voyages... op. cit., p. 4.

(4) Valensi (L), J. A Peyssonnel, voyage dans la regence de Tunis... op. cit., p. 135.

(5) Pellissier (E), Description... op. cit, p. 44.

«المغارم»<sup>(١)</sup> على السكان وتحديدا القبائل الداخلية<sup>(٢)</sup>. وقد أكد صاحب الإتحاف هذا الأمر العديد من المرات، أبرزها القوضى التي عمت منطقة الأعراض بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية سنة ١٨٤٠م. ففي تلك السنة «وقع شىء من بوارق العصيان، خاف الباي من سريانه في المملكة لاتحاد السبب. و ذلك أن هذا الباي (المشير أحمد باي ١٨٣٨م - ١٨٥٥م) لما صرف عنايته إلى تكثير العسكر لزمه (اضطر) زيادة المصروف ضرورة، فرتب مغارم على ما يباع من الطعام والبقول ونحوها، تعرف بالمحصولات... رتبها وعممها في المملكة وأسواق العربان والتزمها ملتزمون وقع التغافل عنهم<sup>(٣)</sup>... فاعتمد متولى لزمة الأعراض الإجحاف فيها حتى قيل إنه يطلب المحصول على دفن الميت فهجم عليه بعض العامة وقتلوه<sup>(٤)</sup>... ولما بلغ الخبر الباي وتحقق عنده أن سائر عربان المملكة استحسنا ذلك وتآمروا عليه، تلافى الصغير قبل أن يكبر والقليل قبل أن يكثر فنهض بنفسه إلى الأعراض يجر وراءه عرمرما من العسكر النظامي...»<sup>(٥)</sup>.

بقي الصراع إذن سجالا بين السلطة المركزية والقبائل البدوية طوال الفترة الحديثة واتخذ أشكالا مختلفة من حملات تأديبية تقوم بها الجيوش النظامية ضد القبائل المتمردة إلى حروب طويلة المدى يشنها البايات ضد انتفاضات شاملة جمعت في ردهات من القرن

---

(١) يذكر ابن أبي الضياف أن بعض المسئولين في أغلب مراتب الدولة يدعون دائما إلى إئثار كاهل «الأعراب» بالمغارم على أساس أن «العربان إذا كثر مالهم ساء حالهم، وفي ثقل الجباية خضد لشوكتهم وكبح لهم عن العصيان» ويضيف أن «بعض الأوغاد السفهاء من جهلة الترك» يتنردن بمثال تونسى «العربى خذ ماله واقطع رأسه» الإتحاف... ج ٥، ص ١٢٩.

(٢) يتحدث محمد الهادي الشريف في مقاله حول «حركات الفلاحين في تونس خلال القرن التاسع عشر» عن «أزمة حادة تناقضت فيها مصالح آلة حكم متطورة ورواسب نظام اقتصادى بال».

Chrif (M. H) «Les mouvements paysans dans la Tunisie du XIX é S... op. cit., p. 47.

(٣) لاحظ De Paradis منذ نهاية القرن ١٨ أن «الدولة تفرض الضرائب عن طريق لزمة يدفعها فايد المنطقة مسبقا ثم يتولى جمعها معتمدا كل طرق القمع والقوة. وتتغافل الحكومة عن جور عمالها ذلك ما يجعلهم غالبا في موقع قوة...». .Cuoq (J), Venture De Paradis... op. cit. p. 54

(٤) في الفترة نفسها، وغير بعيد عن منطقة الأعراض، يذكر ممثل القنصلية الفرنسية Pellissier أن «أعراب المثاليث اشتبهروا بطباعهم الغليظة فكثيرا ما يهاجمون جباة الضرائب ويهينونهم. وقد قتلوا مؤخرا أحدهم، لذلك أصبحت السلطة تهابهم وتتعامل معهم بلطف» Pellissier (E), Description... op. cit. p. 132

(٥) ابن أبي الضياف، الإتحاف... المرجع نفسه، ج ٤، ص ٤٤.

التاسع عشر العديد من القبائل المتضامنة ضد الحكم المركزي<sup>(١)</sup>. ونتيجة لهذا الصراع الدائم بين بدو يتوقون إلى الحرية والترحال الدؤوب دون قيود ونظام حكم قائم على مبدأ «الأمن الجماعي» والاعتراف بسيادة صاحب السلطة، مما يقتضى الاستقرار والانخراط في صلب المجموعة، تمكن الأتراك، على امتداد السنين، من السيطرة على معظم المناطق الحضرية للبلاد التونسية قبل سكان هذه المناطق بدورهم الانصياع إلى حكم البايات وأعلنوا ولاءهم لأصحاب السيادة عن طواعية أو مكرهين على ذلك. كما تفاعلوا مع المعطيات التي يملئها عليهم الاستقرار من أعمال وطباع هادئة. فحسب شهادة بعض الرحالة الأوربيين، كانوا «يمتازون بنزاهتهم وإن كانت لهم مساوئ توازي محاسنهم كالتخاذل وقلة الحيوية<sup>(٢)</sup>... فالجرائم قليلة في الأوساط الحضرية بل هم غالبا ضحية مهاجمة جيرانهم...<sup>(٣)</sup>. أما العرب «ذوى الخيام، فهم جريئون ولهم حيوية فائقة... حياتهم قليلة الهدوء، ما عدا سكان المناطق المجاورة للقيروان، ولا يتحملون سياسة القمع التي تتوخاها السلطة تجاههم...<sup>(٤)</sup>. وأفضل دليل على استقرار أكبر نسبة من القبائل التونسية خلال القرن ١٩ هو تقلص الحملات التأديبية ضد العصيان البدوي<sup>(٥)</sup> وقبول معظم القبائل مبدأ دفع الجباية بطرق سلمية كلما مرت بهم المحلة التي كانت تخرج من العاصمة تحت قيادة الباي الحاكم أو «باى الأمحال»<sup>(٦)</sup> للقيام برحلتى الصيف والشتاء فى كل سنة. فتتوجه المحلة شمالا فى الصيف لاستخلاص الجباية على المحاصيل الزراعية وجنوبا فى فصل الشتاء لاستخلاص الجباية على إنتاج الزيتون.

(١) أشهر هذه الانتفاضات هي التي هزت الإيالة التونسية سنة ١٨٦٤م وعرفت بـ «انتفاضة ابن غدام». انظر الإتحاف... ج ٥، ص ١٢٧.

(٢) ذكر ابن خلدون فى باب «ال عمران البشرى والأمم المتوحشة...» من المقدمة أن البدو «كلما نزلوا الأرياف وتفنقوا النعيم وألفوا الخصب فى المعاش، نقص من شجاعتهم... فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويتنعمون فيما أتاهم الله من البساطة...» المقدمة... ص ١٧٥.

(3) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis... op. cit., p. 330.

شغل Pellissier منصب نائب القنصل الفرنسى بتونس ما بين ١٨٤٣ و ١٨٤٨م.

(4) Ibidem.

(٥) فى ما عدا فترات الانتفاضات العامة التي كانت تشمل الحواضر والأرياف دون استثناء.

(٦) يتولى عادة ولى العهد الخروج على رأس المحلة وجمع الضرائب أو أحد أفراد عائلة الباي المقربين إليه.

وإن اختصرت المصادر المحلية الحديث عن المحلة في ذكر خروج أشهرها وما قامت به من ردع للقبائل لاستتباب الأمن، فإن آثار الرحالة الأوربيين تطالعنا بأطراف الحديث عن الحملات التي تقوم بها المحلة لاستخلاص الجباية ولفرض السيادة على القبائل المستعصية. فابن أبي الضياف لم يتعرض لخروج المحلة إلا المرات القليلة على غرار محلة «الخمسة بايات» التي قادها حمودة باشا على إثر توليه الحكم والتي اصطحبه فيها أخويه عثمان ومحمد المأمون وابني عمه محمود وإسماعيل. ولم يذكر عن هذه المحلة إلا ما حققه حمودة باشا من بطولات بأن «مهد الوطن وأمن السبل وغل أيدي المعتدين وأرهب العمال واستوفى الجباية»<sup>(٧)</sup>. في حين يقتفى Desfontaines<sup>(٨)</sup> أثر المحلة نفسها ويمدنا بدقيق التفاصيل عن الأحداث التي تخللت مدة رحلتها بمناطق الجنوب التونسي<sup>(٩)</sup>.

ومن حسن الحظ كذلك، أنّ عدداً آخر من الأوربيين تواجد خلال القرن التاسع عشر إلى جانب بعض البايات عند خروجهم على رأس محلاتهم. وقد وافانا هؤلاء بوصف دقيق لخروج المحلة من العاصمة في شكل احتفالي إلى حين عودتها. ولنستمع لـ Flippi في أطرف ما ذكر عن المحلة التي قادها حسين باي (١٨٢٤م - ١٨٣٥م) بنفسه. إضافة إلى الحديث المطول عن انطلاق المحلة من تونس العاصمة في موكب بهيج، يمدنا القنصل الإيطالي بتفاصيل أدق عن يوميات القافلة وهي تقطع الوسط التونسي تحديداً ببير (بئر) الحفي حيث توقفت للاستراحة: «... عندما كانت المحلة في منطقة السونية شوهد هلال شوال فأطلق الفرسان عبارات نارية إعلاناً لعيد الفطر «البيرم» (٩ إبريل ١٨٢٩م) ... وفي الغد صباحاً استقبل الباي التهاني من قبل أعيان القيادة. وأمام الجميع أقيمت، مثلما يقع في قصر باردو، المصارعة اليونانية وصراع السيوف<sup>(١٠)</sup>، كل ذلك تحت قرع الطبول والمزمار. وفي المساء، مر أمام الباي فرسان قبيلة الهمامة وعددهم ٥٠٠ يتقدمهم الفايد. تقدم الفرسان في صفين وعند وصولهم أمام مدخل الخيمة أطلق كل فارس عياراً في الفضاء أو على الأرض ودام الاحتفال أكثر من نصف ساعة. ثم تقدمت ستة جمال مزركشة بنوع

(٧) ابن أبي الضياف، الإتحاف... المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠.

(٨) قدم إلى تونس في مهمة علمية. كما أنه شغل خطة طبيب الباي ما بين ١٧٨٣م و١٧٨٦م.

(٩) Dureau de La Malle, Fragment d'un voyage dans la Régence de Tunis et d'Alger fait de 1783 a 1786, t2, Paris 1838.

(١٠) وهو استعراض بقي إلى يومنا هذا يتماها خلاله فرسان بالصراع بالسيوف أو بالعصى ويسمى «الزقارة».

من الزرابى الحمراء على ظهورها نساء مستورة تغنى أغاني وطنية على شرف الباي وبين الأغنية والأخرى تنطلق الزغاريد من حناجر الوصيقات... ثم تقدمت مجموعة أخرى من الفرسان يركبون أجمل الخيول التي ازدانت بزرابى من الحرير تغطى ظهورها وتترامى على مؤخرتها إلى حد سيقانها. ويتقدم الموكب الكربسون»<sup>(١)</sup>.

ساهمت القبائل المخزنية<sup>(٢)</sup> بقدر وفير فى مساندة وإنجاح الحملات التي كانت تقوم بها المحلة سنويا بين الشمال والجنوب. وقد لفت انتباهه جل الرحالة منذ القرن ١٨ الدور الخطير الذى تقوم به هذه القبائل بتقديم مدد عسكري للمحلة يتمثل فى أقدر فرسانها و«لوجستى» فى ضبط مواطن القبائل الأخرى مثلما لاحظ ذلك العالم النباتى Rebatel فى منتصف القرن ١٩<sup>(٣)</sup>. فالبلاد تنقسم حسب رأيه «إلى حزبين متعاضدين: الباشية أو العرب الأحرار وهم البدو الحقيقيون والحيسنية أو الحزب الحكومى»<sup>(٤)</sup>. تمثل قبيلة بنى زيد الكبرى الحزب الأول وتمثل قبيلة الهمامة الحزب الثانى. وحول هاتين القبيلتين تنصوى باقى القبائل الأخرى حسب أفكارها وحسب مصالحها. وأهم القبائل التى تنتمى إلى صف بنى زيد، المثاليث قرب صفاقس والسواسى ما بين سوسة والقيروان وحازم ما بين سيدى مهبذ وفابس وماجر والفراشيش ما بين تونس والحدود الجزائرية. أما حول الهمامة فتصطف قبائل جلاص قرب القيروان وورغمة قرب الحدود الطرابلسية والعاكارة بجرجيس

(١) تستعمل العبارة للدلالة على أجمل الخيول العربية التى يمتطيها أحد أتباع الباي التى تحلى بغطاء جميل للغاية. يسبق الكربسون جواد الباي ويعطى الإشارة للموسيقى العسكرية ويحمل الفارس الذى يمتطيه سنجقا أخضر «سنجق شريف» كما يسمى كذلك «سنجق المراحل».

(٢) تعود جذور المؤسسات المخزنية للعهد الحفصى ورثتها السلطة التركية. وتعتبر المخزنة «عقدا» معنويا يربط بين السلطة وبين بعض القبائل يقتضى مبدأ المشاركة النظرية فى تسيير العمل السياسى داخل البلاد ويفضى إلى مساندة هذه القبائل الموالية للسلطة عسكريا لإخضاع القبائل المعارضة مقابل امتيازات مادية تتمتع بها دون غيرها كعدم دفع الضرائب. انظر، الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس فى العهد الحديث...، المرجع نفسه، ص ١١٢.

(٣) قدم إلى تونس فى شهر مارس ١٨٧٤م وقام برحلة عبر الوسط والجنوب التونسى.

(٤) تلخص العبارتان الصراع السياسى الدامى الذى جمع بين حسين بن على التركى مؤسس الدولة الحسينية وابن أخيه على باشا. وانتهت الفتنة بمقتل حسين بن على على يد ابن أخيه «وانقسمت البلاد يومئذ إلى حسينية وهم القائلون بدعوة حسين بن على، وإلى باشية وهم القائلون بدعوة على باشا» وقد ساهم هذا الصراع السياسى فى تدعيم ظاهرة انقسام المجتمع القبلى بين قبائل الموالية للحكم المركزى وأخرى معارضة له إلى حدود الاستعمار الفرنسى. انظر، ابن أبى الضياف، الإتحاف... ج ٢، ص ١٤٠.

ونفات ما بين عفارب وأولاد البان وأولاد عيار ما بين الكاف والحدود الجزائرية. كما يجد كلا الصفيين تحالفات في المدن الكبرى. فنصف مدينة فابس ونصف منطقة الجريد والساحل يتحالف مع بني زيد ونصف المدن الأخرى بما في ذلك صفاقس يتحالف مع الهمامة. ولا يجب أن نعتبر موالاة صف للباي اعترافا كليا بسلطته دون معارضة. لا شيء يدل على ذلك، فالحكومة لا تساند الهمامة إلا لمقاومة بني زيد. وهكذا يعيش أصحاب السلطة في أمن وسط هذه الصراعات التي لا تنتهي. إلا إنهم، لا يعتمدون كثيرا على وفاء أنصارهم كلما تعلق الأمر برفع الضرائب، فالمشاكل تتأتى من كلا الجانبين. فالأحرار يعتبرون رفضهم لدفع «العشر» لسلطة معادية لهم مشروعاً بينما يعتبر الصف الثاني أنه دفع بما فيه الكفاية من أرواح رجاله عند مقاتلة أعداء الحكومة ولا يجب أن يدفع أكثر من أمواله. فقبيلة ورغمة، نظراً لأنها من صف الهمامة، لا تدفع الضرائب إلا عندما يحلو لها وهي مع ذلك من أخطر القبائل...»<sup>(1)</sup>

ولعل أشهر القبائل المخزنية هي قبيلة دريد. فقد ذكرت جل المصادر الغربية منذ القرن ١٨ أنها «كثيرة العدد ومن أقوى القبائل كما أنها لا تدفع أية ضريبة بل تتلقى من الحكومة مقدارا ماليا مقابل الخدمات العسكرية التي تقدمها لها. فهي توفر للمحلة آلاف الفرسان كلما خرجت لرفع الضرائب...»<sup>(2)</sup>. ويمدنا Pellissier بمعلومات أوفر حول هذه القبيلة التي «لا تمتلك مقرا محددًا وتنقسم إلى عدة فروع يقطن بعضها الجزائر في منطقة قسنطينة وينتشر أغلبها في كامل أرجاء شمال وغرب الإيالة. تقوم بعض فروعها برعى الغنم ويتعاطى البعض الآخر الأعمال الفلاحية كزراعة الحبوب أو يشتغلون كمزارعين «خماسة» في أراضي البيليك... يساهم فرسانها<sup>(3)</sup> في المحلة المتجهة نحو بلاد الجريد ويغتتم هؤلاء الفرصة لمقايسة حبوب المناطق الشمالية التي يحملونها معهم بتمور منطقة الجريد...»<sup>(4)</sup>.

(1) Rebatel et Tiran «Voyage dans la Régence de Tunis, effectuée en 1874» Nouvelles annales des voyages de la Géographie et de l'Histoire, Paris 1923, p. 306.

(2) Cuoq (J), *Venture De Paradis...* op. cit., p. 56.

(3) يحدددهم Filippi في الفترة نفسها ب ٢٥٠٠ فارس.

Monchicourt (C), *Documents historiques sur la Tunisie...* op. cit., 312.

(4) Pellissier (E), *Description de la Régence de Tunis...* op. cit., P. 185 – 186.

## ٢ - القبيلة التونسية خلال القرن ١٩:

يعتبر «وصف الإيالة التونسية» ل Pellissier De Reynaud أهم الأعمال التي قدمها رحالة القرن ١٩ عن تونس. وتكمن أهمية هذه الدراسة في دقة الوصف لكامل مناطق البلاد التونسية على كل المستويات، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. كما يمكن أن نعتبر الخريطة التي أوردها ممثل القنصلية الفرنسية في كتابه وثيقة مهمة لدراسة جغرافية البلاد التونسية وتحديد مناطق استقرار مختلف القبائل. إلا إنه عدل عن البحث في أصول هذه القبائل واكتفى بتعدادها حسب موقعها الجغرافي من الشمال إلى الجنوب. ولعل ذلك يعود لصعوبة البحث الميداني. بل إن الخوض في البحث عن جذور القبائل التونسية كان شبه مستحيل للأوروبيين آنذاك إذ إنهم كانوا يمرون بمختلف المناطق مرورا سريعا ولم تكن السلطة المحلية تسمح لهم بالسبر أو الإحصاء. وما تحصل عليه Pellissier فى منتصف القرن ١٩ من معلومات عن المجتمع التونسي عموما لا يعدو أن يكون خلاصة عدة سنوات من التحقيقات لدى سكان الإيالة وشيوخ مختلف القبائل، نظرا للمهمة السياسية التي اضطلع بها خلال إقامته بتونس، مع ما تحمله تحقيقاته من هنات ونقائص.

وعلى غرار اعترافات باحثى الفترة الاستعمارية والمعاصرين، فإن «التعرف إلى الخليط القبلى والجذور الإثنية لأى قبيلة ما يبقى صعب المنال إذ إن كل القبائل استعربت من حيث اللغة والدين والثقافة منذ زمن بعيد... وحتى أسماء العلم التي تعود إليها جل القبائل لا تعنى شيئا حيث إن القبائل البربرية التي لم تفر أمام الزحف الهلالى اندمجت مع القبائل الزاحفة واتخذت اسم مجموعة معينة...»<sup>(١)</sup>. وقد حاولت Lucette Valensi فك لغز الجذور التاريخية للقبائل التي عننتها بالدرس، إلا إنها اعترفت في نهاية الأمر أن ضبط تاريخ مختلف القبائل وأصولها يبقى شبه مستحيل. فالقبائل تضبط تاريخ مجيئها وتكوينها وتنظيمها بنفسها معتمدة على أسس أسطورية تناقلتها الأجيال وتغيرت من فترة لأخرى...<sup>(٢)</sup>. ذلك ما تبرزه، على سبيل المثال، ملحمة قدوم واستقرار قبيلة المرازيف في

(1) Despois (J), La Tunisie orientale, Sahel et basse steppe, 2ème éd, P. U. F, Paris 1956, p. 169.

(2) Valensi (L), Fellahs tunisiens... op. cit., p. 10.

الجنوب التونسي. فالرواية التي يتفاخر في ذكرها الأحفاد بالجدود الأولين، تبرز مدى سيطرة الجانب الأسطوري على أحداثها. كما تتداخل في مختلف مراحل تكوينها الجذور العربية بالبربرية بحيث يعسر على الباحثين المعاصرين فك ألغازها<sup>(١)</sup>.

نتحاشى من ناحيتنا الدخول في الجزئيات المتعلقة بخصوصيات القبائل التونسية وتركيبتها الاجتماعية والنظام القبلي الذي يسود البلاد التونسية خلال الفترة الحديثة. فالدراسات تعددت من هذه الناحية<sup>(٢)</sup>. ونقتصر على تصنيف القبائل التونسية حسب ما ورد في آثار الرحالة الأوربيين. فإلى جانب تقديم القبائل وفروعها أو بطونها حسب العبارة المحلية، من الشمال إلى الجنوب، أشار الرحالة إلى طبيعة كل قبيلة إن كانت مستقرة أو مرتحلة أو مُغيرة. وهذا من شأنه أن يدعم ما خلصت إليه الدراسات المعاصرة من تحولات طرأت على المجتمع البدوي خلال القرن ١٩.

### ( أ ) من الترحال إلى الاستقرار :

من خلال وصفى Marmol وأبى الحسن الوزان في مستهل القرن ١٦ يبدو أن بعض القبائل تركزت على الشريط الساحلي من شمال البلاد إلى جنوبها وفي بعض السهول الخصبة وحول الأودية. بينما أبقت غالبية القبائل الأخرى على ترحالها داخل البلاد ما بين مناطق السباسب العليا والسفلى وتخوم البلاد الجبلية والصحراوية معتمدة على نمط عيش قوامه تربية الجمال والصيد والإغارة... كما تعتمد بعض القبائل على مقايضة العبيد بسلع تقتنيها من تجارة البندقيين مع المدن الساحلية<sup>(٣)</sup>.

اجتمعت القبائل المستقرة على الشريط الساحلي الممتد من طرابلس إلى شمال البلاد التونسية، في شكل قرى و«دواوير» مثلما أشار لذلك أبو الحسن الوزان. وارتكز معاش البدو

(1) M'halla (M), «Sahara et Oasis avant la fin du bédouinisme...» op. cit., pp. 137 - 193.

(٢) لعل أبرزها دراسة Lucette Valensi ودراسة الأستاذ مبروك الباهي المذكورتان أنفا وأطروحة دكتوراه للأستاذ خليفة شاطر حول: «التبعية وتغيرات ما قبل الاستعمار: الإيالة التونسية من ١٨١٥م إلى ١٨٥٧م».

Chater (K), Dépendance et mutations précoloniales: la Régence de Tunis de 1815 à 1857, Tunis, P. U. T 1984.

حول الدراسات التي عنيت بالقبيلة في تونس الحديثة انظر الباهي (مبروك)، المرجع نفسه، ص ٢١. باشية.

(3) Léon (l'Africain), De l'Afrique... op. cit., t. 2, p. 91.

في هذه التجمعات السكنية على أعمال مختلفة كزراعة الحبوب وغراسة بعض الأشجار المثمرة أو تربية الماشية كالضأن والخيول أو بعض الأعمال اليدوية أبرزها النسيج، وقد دعم نظام البايات منذ بداية القرن ١٧ استقرار البدو في هذه المناطق لتأمين حياة سكان الحواضر وإنجاح مشروعه السياسي الرامى إلى فرض مبدأ «الأمن الجماعي» والاقتصاد القائم على القرصنة والمبادلات التجارية<sup>(١)</sup>. ولم تول الإدارة المركزية في بداية الأمر اهتماما بالمناطق الشاغرة من التراب التونسي بل ركزت حملاتها على مناطق استقرار بعض القبائل ومسالك مرور البعض الآخر في ترحالها لفرض سيطرتها عليها، ومن دانت له الأشخاص ملك الأرض قهرا<sup>(٢)</sup>.

انطلاقا من القرن ١٨ أشارت جل آثار الرحالة الأوربيين إلى انتشار القبائل المستقرة في كامل تراب الإيالة من شمالها إلى جنوبها إما طوعية لارتباطها بالأرض أو قهرا أمام بطش السلطة المركزية<sup>(٣)</sup>. وتمثل المشهد الجديد في استقرار القبائل الكبرى وخاصة منها تلك التي تقطن السباسب العليا والوسطى والتي حددها Pellissier سنة ١٨٤٣م بأربع: قبيلة جلاص: وهي بدورها تنقسم إلى أربعة فروع أو «بطون»: أولاد إيدير، شمال القيروان، سنداسن جنوبها، الكعوب أو القوازين خلف جبل وسلات وأخيرا يقطن أولاد خليفة شرقي سنداسن. وكانت هذه القبيلة فيما قبل، تنضم تحت قيادة واحدة أما الآن فهي تنقسم إلى قيادات ثلاث: أولاد إيدير، أولاد خليفة وسنداسن والقوازين. وتوفر هذه القبيلة لحكومة الباي ثلاثة آلاف فارس كلما اقتضت الحاجة<sup>(٤)</sup>.

(١) يعتبر مبروك الباهي أن «إيقاع التاريخ التونسي مال منذ الحضور العثماني إلى حلبة المتوسط وانتصبت السلطة وسيطا بين الأرياف متنوعة الإنتاج وبين ذلك المركز...» القبيلة في تونس... المرجع نفسه ص ٢١.

(2) Bachrouch (T), Formation sociale barbaresque... op. cit., p. 158.

(٣) يتحدث مبروك الباهي عن عامل «الحوز وأهمية الظاهرة الولائية في تشكيل المشهد العقارى السياسى...»، القبيلة في تونس في العهد الحديث... المرجع نفسه، ص ٣٦.

(٤) إلى حدود القرن التاسع عشر لم تكن تساهم في توفير الجنود أيام الحرب إلا القبائل المخزنية. وفي عهد حمودة باشا باى الحسينى (١٧٨٢م - ١٨١٤م) أرغمت كل القبائل على تقديم يد العون للحكومة المركزية أيام المحن وذلك بتقديم نسبة من خيرة فرسانها لمعاودة الجيش الحكومى. يقول Louis Frank، الطبيب الخاص لحمودة باشا: «كلما وجد الباي نفسه مجبرا على شن حرب على باشا طرابلس أو بايات قسنطينة أرغم القبائل على جمع قوة عسكرية كبيرة تبلغ قرابة أربعين ألف جندى... بعد جمع الجيش التابع له مباشرة، يطلب من قبائل العرب البدو قاطبة مناصرة الإيالة... لم تكن هذه القبائل تتراجع قط عن هذا النداء يحدها في ذلك أمل الحصول على غنائم على حساب العدو المنهزم وحتى على حساب أهالى الإيالة الذين يعترضون سبيلها... ويتكون جيش هذه القبائل من فرسان فقط»

Marcel (J. J), Tunis... op. cit., pp. 74 - 75.

قبيلة ماجر: تحتل هذه القبيلة منطقة حاجب العيون إلى حدود واد الفكّة وتنقسم إلى «برادع» ثلاث: أولاد منا ويستقر هؤلاء حذو وادى جلمة، فهد قرب جبال مكيلة والشكاتمة نحو الغرب فى سببية. وتوفر قبيلة ماجر ألفى فارس.

قبيلة الفراشيش: لهذه القبيلة فروع ثلاثة وهى: أولاد نجدى، على حافتى وادى الفكّة الأعلى ووادى الدرب، أولاد على والوزاز قرب الحدود الجزائرية. ويوفر الفراشيش من جهتهم ألف فارس.

قبيلة الهمامة: تقطن هذه القبيلة جنوب ماجر والفراشيش إلى حدود منطقة الجريد وتنقسم إلى فروع ثلاثة: أولاد عزيز جنوب جبل عرباط وأولاد رضوان شمال جبل ماجورة وأخيرا المعامرة فى منطقة بير الحفى والسوينية إلى حدود فريانة. توفر قبيلة الهمامة عند الطلب ثلاثة آلاف فارس<sup>(١)</sup>.

كما أكدت غالبية المصادر الغربية على أن كل هذه القبائل المستقرة تعتمد فى نمط عيشها على أعمال فلاحية دورية تجبرها على الاستقرار كالزراعات وتربية الماشية فى المراعى القريبة من القرى والدواوير. كما أنها تتجمع حول ولى صالح يكون غالبا مؤسسها أو أحد أحفاده تنسج حوله جملة من الكرامات ويحميها وقت الحاجة. ذلك ما ذكره أحد رحالة منتصف القرن ١٩ عن قبيلة الفراشيش التى «تتكون من «برادع» أو فروع ثلاثة كل واحدة لها «زمالتها»، أى العائلات المكونة لها. «ويحكم القبيلة فايد<sup>(٢)</sup>. يعيش الكل تحت الخيام وهم فى آن واحد فلاحون ورعاة متنقلون. تنتقل قطعانهم الكبيرة داخل مساحة شاسعة تتراعى أطرافها من الغرب إلى الحدود الجزائرية. ينسجون أغطية بصوف خرفانهم وبرانس جيدة... تجتمع زماله أولاد على، وهى إحدى فروع قبيلة الفراشيش حول سيد بولعابة وهو وليها الصالح. وحول ضريحه تنتشر مقبرة قبيلة الفراشيش جمعاء...»<sup>(٣)</sup>.

(١) تضيف Lucette Valensi أن: «أولاد سيدى سليمان والحوامد والقمامدية وأولاد سيدى بوزيد لا ينتسبون من حيث أصولهم لأولاد رضوان أحد الفروع الأساسية للهمامة... فالقمامدية يحتلون منذ أمد طويل حافة الوادى المسمى باسمهم نحو زاوية الصداقية، ولا تعرف أصولهم التاريخية شأنهم فى ذلك شأن القبائل الثلاث الأخرى التى عاشت دائما بين أبناء قبيلة أولاد رضوان» (L. Valensi, Fellahs... op. cit., p. 37).

(٢) كانت الإيالة تنقسم إداريا إلى «فيادات» يترأس كل واحدة «فايد». وتنقسم الفيادات بدورها إلى «مشايخ» (مشايخ).

(3) Guérin (V), Voyage archéologique.. t. 2, op. cit. pp. 307 – 308.

ما هي إذن العناصر التي حددت استقرار القبائل على امتداد العصور؟ وهل الاستقرار هو إرادة سياسية للضغط على البدو والرحل وإجبارهم على دفع الجباية فحسب؟ أم هي ظاهرة اقتصادية بحيث إن القبائل الرحل تأقلمت مع بيئة معينة وتفاعلت مع نمط عيش أجبرها على الاستقرار وتغير «نمط إنتاجها»؟! .

يبدو أن كل هذه العناصر الطبيعية والسياسية والاقتصادية تفاعلت تدريجيا خلال الفترة الحديثة لخلق مجال جديد ساعد بل أجبر في بعض الأحيان قبائل الوسط التونسي وبعض قبائل الأطراف الشمالية والجنوبية للإيالة التونسية على الاستقرار. وربما كان للعامل السياسي الدور المحدد في هذه الظاهرة التي غيرت من نمط عيش البدو الذين استقروا نهائيا أو أبقوا على ترحالهم في مجال جغرافي ضيق مثلما تقتضيه حاجة ارتباطهم الوثيق بالأرض كما يشير إلى ذلك الأستاذ مبروك الباهي بأن التحول من الاعتماد على الجمل للترحال إلى الاستقرار بتربية الخرفان ترافق مع تعديل طبيعة الرحلة والعلاقة مع المجال، إذ أصبحت التجمعات السباسبية تقتصر دورة تحركها في الغالب على مجالاتها المخصصة...<sup>(١)</sup>. وما إشارة Louis Frank إلى أن «القبائل التونسية أصبحت منذ حكم حمودة باشا باى تساهم في مد الجيش النظامي بخيرة فرسانها وقت الحاجة» إلا دليل على ولائها للسلطة المركزية وامتثالها لمشيئتها<sup>(٢)</sup>. ولئن أبقّت بعض فروع من قبائل الوسط والجنوب التونسي على تمردا وطابعها المعادي لأي شكل من أشكال الإدارة السياسية فذلك أمر شاذ لا يتناقض مع الظاهرة العامة للاستقرار الذي شمل معظم القبائل التونسية. نضيف إلى ذلك ما أشار إليه الرحالة من انتشار الطرق الصوفية<sup>(٣)</sup> واستقرار الأولياء الصالحين وأصحاب الطرق في مناطق معينة تبعهم إليها أتباعهم وكل من اعتقد في كراماتهم.

تفاعلت إذن عدة عناصر على مشارف نهاية الفترة الحديثة لتغيير من نمط عيش الجزء الأكبر من البدو في الإيالة التونسية وذلك بتشكيل النظام القبلي التونسي وبروز القبيلة التونسية كوحدة بشرية/ ثقافية تطورت في صلبها شريحة من المجتمع التونسي جبلت

(١) الباهي (مبروك)، القبيلة في تونس في العهد الحديث... المرجع نفسه، ص ٢١٧.

(2) Marcel (J. J), Tunis... op. cit., pp. 74 – 75.

(٣) أو ما عبر عنه مبروك الباهي «بالتزوي»، المرجع نفسه.

قديمًا على الضرب في البوادي والقفار وآلت بتدرج إلى الاستقرار في مواضع اتخذت منها موارد رزقها بتعاطيها الأعمال الفلاحية كالزراعة والغراسة وتربية الماشية أو المبادلات التجارية مع الحواضر المجاورة لها<sup>(١)</sup>.

كما طور البدو المستقرون في آن واحد نمط عيشهم إذ «تدجنوا» وسايروا سكان الحواضر طباعهم وبعض عوائدهم وتعاملهم. وتقسيم المجتمع التونسي، حسب طباعه إلى «سكان ذوى مساكن قارة» و«عرب القبائل الرحل»، الذى اعتمده Pellissier فى منتصف القرن ١٩ يدل بوضوح على تأقلم المستقرين من البدو مع ما يحتمه الاستقرار من تغيير فى سبل العيش والطبائع «الهادئة» بعيدة عن «التوحش» الذى يقتضيه الترحال<sup>(٢)</sup>. وفى انحدار البداوة عشية القرن ١٩ نحو الاستقرار والتخلى عن الترحال كإحدى الخصائص الحضارية لأبرز شريحة من المجتمع التونسي الحديث تدرج طبيعى نحو انقراض القبيلة كوحدة اجتماعية/ ثقافية متجانسة فرضت سيطرتها على المجال الجغرافى التونسى لقرون متتالية.

وإن اعتبر البعض أن الفاعل الاستعماري هو الذى قوض التنظيم القبلى بتونس، فإن تطور المجتمع التونسى خلال الفترة الحديثة بتفاعل العوامل السياسية والاقتصادية يبدو المحدد فى انتقال البدو الرحل إلى حضريين مستقرين<sup>(٣)</sup>. وعبارة «البدو شبه الرحل» أو «نصف الرحل» «semi - nomades»، إنما هو مفهوم استعماري اختلقته الإدارة الاستعمارية لإبراز الدور الحضارى الذى قامت به للقضاء على النظام القبلى السائد إبان

---

(١) استغرق تدرج القبائل البدوية نحو الاستقرار «زمنًا غير هين تدرجت فيه قبائل الشمال قبل وسط البلاد وجنوبها. ومن ثم فاعتقد أن بداية المرحلة الأولى من استقرار عروش مجردة... لم تتحقق إلا خلال القرن ١٦ عندما بدأت تتوطد علاقتها بالأرض والنشاط الزراعى بينما تستمر هذه الدورة الأعاشية المرتبطة بالجمال عند الهمامة فى السباسب حتى القرن ١٨ ولدى ورغمة فى جنوب الأعراض حتى القرن ١٩». الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس فى العهد الحديث...، المرجع نفسه، ص ١٤٩.

(2) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis op. cit., p. 331.

وقد خلص صاحب «العبر» من قبل إلى أن العرب إذا ركنوا إلى الاستقرار فى مكان «إنما همتهم الكسب وخصب العيش والسكون فى ظل الدولة إلى الدعة والراحة... فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة... وتنشأ بنوهم وأعقابهم فى مثل ذلك...» المقدمة... المرجع نفسه، الفصل الثامن عشر، ص ١٧٥.

(٣) يعتبر مبروك الباهى أن التاريخ القبلى «انتهى فى السباسب الوسطى كما هو فى مناطق أخرى قبل غروب العهد الحديث إلى تحولات على غاية من الأهمية فى أنماط العيش والتفاعل مع المحيط والأجوار بفعل عوامله الداخلية التى يصعب الإحاطة بها». الباهى (مبروك)، القبيلة فى تونس فى العهد الجديد...، المرجع نفسه، ص ١٣.

الإحتلال<sup>(١)</sup>. إلا أن الاستعمار الفرنسي، وإن لم يكن العامل الأساسي في تطوير ظاهرة البداوة في تونس عشية القرن ١٩، فقد ساهم بطريقة غير مباشرة في استقرار بعض القبائل البدوية التونسية وذلك بإدخال تغييرات جذرية على النظام السياسي. فقد عدلت القبائل المخزنية التي كانت موالية للعائلة الحسينية الحاكمة من نمط عيشها على غرار قبيلة دريد «التي كانت من قبل قوية بإمكانها أن تجمع آلاف الفرسان لمعاضدة فرق الجيش النظامي... أما الآن فساعة انهيار قبيلة دريد قد دقت؛ إذ خسرت كل امتيازاتها وانقسمت إلى عدة مجموعات بأئسة تهيم في مناطق خصبة عاجزة على حرثها وزرعها وسوف تجبر بدون شك على التفريط فيها لمن هو قادر على استغلالها... وقد عدل قائدها منذ سنوات على العيش تحت خيمته واستقر في بيت حجري... وقد أخذنا في نزهة داخل حديقته حيث غرس أشجارا مثمرة متنوعة...»<sup>(٢)</sup>.

### (ب) التمرد البدوي:

اتسمت العلاقات بين بعض القبائل التونسية بالاحتداد بل بالصراع - شبه المتواصل - على امتداد عدة قرون. وقد حاولت مختلف الدراسات المعاصرة أن تجد تفسيراً لهذه الصراعات القبليّة؛ ففي حين يرى بعض المؤرخين أنها تعود بالدرجة الأولى إلى أسباب اقتصادية مرجعها الأصلي التناحر للسيطرة على الأراضي الخصبة والمرعى<sup>(٣)</sup>، أو تمثلت

---

(١) درجت العبارات في كتاب Mayet الذي زار الجنوب التونسي سنة ١٨٨٤م والذي يعتبر أن سكان منطقة الجريد «استقبلوا الإحتلال الفرنسي بكل حفاوة لأنه خلصهم من خطر القبائل الغازية».

Mayet (V), Voyage dans le Sud tunisien, Paris, Challemeil 1887.

انظر كذلك:

M'halla (M), «Sahara et Oasis avant la fin du bédouinisme. Le Sud - Ouest tunisien au XIX e siècle», in, Le Sahara, lien entre les peuples et les cultures, actes du colloque organisé à Douz du 19 au 22 décembre 2002, édité par la chair Ben Ali pour le dialogue des civilisations et des religionsp. 139.

(2) Fallot (E), Une excursion a travers la Tunisie central, Marseille 1890, p. 89.

(٣) يعتبر Jean Ganiage أن ظاهرة الصراع القبلي «ظاهرة عادية تعود بالدرجة الأولى إلى الحدود الطبيعية لكل قبيلة... وأن ذلك ما يجيش الحزازات القديمة...».

Ganiage (J), Les origines du protectorat francais en Tunisie, 1861 - 1881, P. U. F, Paris 1956, p. 142.

في شكل مصادمات بين دوار وآخر حول نبع مياه، أو غارات كانت تستهدف المشية بالدرجة الأولى...<sup>(١)</sup>، كما ركز البعض الآخر على النظرية الخلدونية التي تعتمد ظاهرة «العصبية القبلية»، في اتحاد والتحام المجموعات البدوية<sup>(٢)</sup>.

إلا أن الأوربيين الذين زاروا الإيالة التونسية خلال الفترة الحديثة قد اكتفوا بذكر هذه الصراعات دون تقديم تفسيرات شافية لهذه الظاهرة وعلقوا عليها بكثير من الاستغراب خاصة إذا قابلت فرعين من فروع القبيلة نفسها. وإن حاولوا في بعض الأحيان التحقيق في الأمر، فإن تحليلهم كان غالبا سطحيا أو تشوبه بعض الأفكار المسبقة حول طبائع البدو المتوحشة. ومع ذلك، فإن كتاباتهم انفردت بالفرقة الواضحة بين مظاهر ثلاثة من تمرد البدو وطباعهم العدوانية<sup>(٣)</sup>: «عصيانهم» للسلطة، مثلما أبرزنا ذلك آنفا، و«الصراعات» التي تندلع من حين لآخر بين بعض القبائل و«الغارات» التي تقوم بها قبائل أو مجموعات بدوية توارثت هذا النوع من «القرصنة» البرية<sup>(٤)</sup> والتسلط الجماعي.

ولعل أبرز أوجه هذه الصراعات هي المواجهة التي كانت تندلع من حين لآخر بين بعض القبائل منذ قرون «دون سبب واضح» بالنسبة لهؤلاء الأجنب؛ إذ تعسر عليهم فهم عمق الصراعات القبلية التي تحتد بين قبيلتين أو أكثر حسب قانون الموالاة أو العداءات القديمة المتوارثة<sup>(٥)</sup>، والقائمة على أسس روابط وخلافات حددتها طبيعة عيش البدو المادية

---

(١) الإبل والأغنام كانت المطع الأول للمغربين على عروش السباسب التي تقدم بها الاستقرار... الباهي (مبروك)، القبيلة...، المرجع نفسه، ص ١٨٤. انظر كذلك Despois (J), La Tunisie orientale... op. cit., p. 162. (2) Chrif (M. H), «Les mouvements paysans...» op. cit., p. 25.

يقول ابن خلدون في هذا الصدد «أما حللهم (البدو) فإنما يذود عنها من خارج حامية الحى من أنجاهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وزيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد...» المقدمة... ص ١٥٩.

(٣) فسر صاحب المقدمة هذه الطباع بأن «صار البأس للبدو خلقا والشجاعة سجية... فكانوا لذلك أشد الناس توحشا» ابن خلدون، المقدمة... المرجع نفسه، ص ١٥٥.

(٤) حسب العبارة التي استعملها Marmol في بداية القرن ١٦ «وسكان المنطقة (المنطقة الشمالية) فقراء بسبب ما يدفعونه للملك كما أنهم يعانون من قرصنة العرب الذى يروعون كامل المنطقة». Marmol, L'Afrique de Marmol. t. 1, p. 531.

(٥) يتحدث التيجاني في رحلته في بداية القرن ١٤ عن علاقة قبيلة ورغمة بجيرانها فيذكر أن لها عداوات متأصلة مع أهل غمراسن «ولها أيضا حقد على النفاتيين وبينهم دماء...» التيجاني (محمد بن أحمد)، رحلة التيجاني، تقديم حسن حسنى عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس ١٩٨٥م، ص ١٣٧. وهى العداوات الباقية إلى حدود القرن ١٩ نفسها.

وتراكمات ثقافية تعود في غالب الأحيان إلى زمن قدوم القبائل العربية واستقرارها في شمال إفريقيا. ويعلق Pellissier على هذه الصراعات قائلاً: «قل وندر أن يستتب الأمن والتصالح بين القبائل الأربع المكونة للوسط التونسي، إلا أن الحرب ليست عامة وتقتصر على مناوشات بين دوار وآخر غالباً ما ينتميان للقبيلة نفسها. عندما كنت بتونس اشتعلت فتيلة الخلاف بين قبيلة أولاد سلامة وقبيلة أولاد علي - اللتان تنتميان إلى القبيلة الأم الهمامة - ولا يستبعد البعض أن هذا الخلاف قد أدى إلى مقتل ١١ رجلاً، والغريب في الأمر أن سبب الخلاف كان تافها يتمثل في مقتل حصان»<sup>(١)</sup>.

وقد تتخذ هذه الصراعات في بعض الأحيان شكل حرب ضارية تتوارثها الأجيال فتشتعل تارة وتخمد أخرى وتتداخل فيها المصالح المادية والصراعات السياسية والأعراف القبلية كقنانون الموالة والأخذ بالثأر والتزواج... وقد عايش Pellissier إحدى هذه الصراعات بل كان طرفاً فيها عندما حاول أن يصالح بين قبيلتي بني زيد وورغمة اللتان تحتلان الجنوب الشرقي من البلاد التونسية. كان ذلك في شهر يولييه من سنة ١٨٤٦م عندما كانت القافلة المرافقة له تقطع منطقة مدنين، فعلم أن «القبيلتين دخلتا في صراع منذ يومين» ولم يتوقف الصراع على الطرفين المتعادين فحسب بل جر مجموعة من القبائل الموالية لهذه أو لتلك، بحيث أصبحت كامل المنطقة الجنوبية الشرقية في حالة حرب واستنفار قصوى. وفي خضم هذه الوضعية المتوترة عبر «خليفة ورغمة» لنائب القنصل الفرنسي عن «استعداد أهله لمصالحة أعدائه» وطلب منه التدخل لدى الباي «حتى يستقبل ممثلين عن القبيلتين المتعاديتين ليصالح بينهما على أسس صلبة». وتقدم «شيخ الحامة» عن قبيلة بني زيد لممثل الدولة الفرنسية بالطلب نفسه. وقد حاول Pellissier القيام بدور الوساطة عن طريق القنصل الفرنسي نفسه، إلا أن مساعيه لم تكن مجدية ولم يعر الباي الوساطة الفرنسية اهتماماً. تواصل الصراع لبضعة أشهر ولم تهدأ الأوضاع إلا لطول مدة الصراع وتزايد عدد القتلى من

(1) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis op. cit., p. 129.

يؤكد مبروك الباهي أن الإغارة كانت تتم من «أجل الماشية والحبوب بينما كان الاقتصاد في إراقة الدماء شعار البدوى الغازي إذ لا تسقط الأرواح إلا عرضاً. ولئن كان الغزو يسمح بنهب كل الممتلكات بما في ذلك السلاح فلم تكن الأعراف في تونس تسمح بالتعدى على اللغائف الضعيفة من شيوخ ونساء وأطفال» الباهي (مبروك)، القبيلة...، المرجع نفسه، ص ١٨٤.

بين الطرفين المتعادين. ويضيف صاحبنا أن «القبيلتين حملتا السلاح من جديد عند رحيلي من تونس في ربيع ١٨٤٨م وهذه الحروب المتقطعة بين القبائل المتعادية أمر عادي يتواصل على النسق نفسه منذ قرون»<sup>(١)</sup>.

وإن كانت المنافسات القديمة والأعراف القبلية الموروثة تمثل السبب الرئيس في إضرام شعلة المصادمات بين القبائل فإن السلطة المركزية لعبت دورا مباشرا في احتداد الأوضاع المحلية بأن تجاهلت مثل هذه الأحداث تاركة المجال لما تعودت عليه هذه القبائل منذ قرون من تصفية حسابات قديمة، بل في تناحرها راحة لأصحاب النفوذ. وما تجاهل المشير أحمد باي تدخل القنصل الفرنسي لفض النزاع بين قبيلتي ورغمة وبنى زيد إلا دليل على رغبته في تواصل النزاع ما لم يكن الأمر موجها ضد الدولة أو أحد ممثليها. والحال أن هذا الباي نفسه تنقل قبل بضع سنوات بجيش «عرمرم» لإخماد فتنة اندلعت في المنطقة نفسها ضد عامل الأعراس. وهي سياسة اتخذتها سلطة البايات في الواقع للترقية بين مختلف القبائل البدوية ودعمتها على امتداد القرن ١٩ باعتمادها «سياسة التمايز القبلي» وإفساح المجال للقبائل المخزنية الموالية لها بأن تهيمن على بعض المناطق على حساب قبائل أخرى ركنت إلى نفوذ العمال وأعاون الدولة<sup>(٢)</sup>.

أما «الغارات» التي احترفتها بعض القبائل «المغيرة» المتمردة أو «قطاع الطرق» الذين ينهبون العامة لصالحهم الخاص فقد أبهرت الجميع وأظنّب جل الرحالة الأوربيين في ذكرها، ومدونا بأدق التفاصيل عن وقوعها. ويبدو أن ظاهرة الإغارة كانت أكثر انتشارا في أوائل العهد الحديث ولم تقتصر على «الغارات المنظمة» بل تمثلت في عمليات «قطع الطريق» الجماعية أو الفردية وخاصة في المناطق الصحراوية النائية حيث تعيش مجموعات تشكو الخصاصة والفقر، على غرار أولئك الذين اعترضوا سبيل أبي الحسن الوزان في بداية القرن ١٦ في المناطق الصحراوية الفاصلة بين تونس وطرابلس حيث «يعيش سكان أقرب منهم إلى الحيوانات، حفاة عراة هلكهم الجوع... فكانوا يرسلون أطفالهم للقيام بأبشع عمليات السطو التي تقع على وجه البسيطة ونهب المارين من هذه المناطق»<sup>(٣)</sup>.

(1) Pellissier (E), Description de la Regence de Tunis op. cit., pp. 208 – 210.

(٢) انظر، الباهي (مبروك)، القبيلة...، المرجع نفسه، ص ١١٦.

(3) Léon (l'Africain), De l'Afrique... op. cit., t. 2, p. 92.

خلال القرن ١٩ ، اقتصرت الإغارة أو ما يعبر عنها «بالتغريبة» على بعض القبائل أبرزها قبيلتي النمامشة والحنانشة على امتداد المناطق المتاخمة للحدود الجزائرية التونسية وقبيلة أولاد سعيد بالمناطق الشمالية وقبيلة الهمامة في وسط البلاد التونسية ومنطقة الجريد وقبيلة أولاد زيد بالجنوب الشرقي<sup>(١)</sup>. وقد أجمع كل الرحالة على أن هذه الغارات التي تقوم بها بعض القبائل على جيرانها «لا تعدو أن تكون أمرا عاديا للغاية يجد فيه البدوي الفرصة للتباهي باستعمال السلاح»<sup>(٢)</sup>. كما هي «عادة مزمنة ومتأصلة في البدو»<sup>(٣)</sup> نظرا لطبيعتهم المتوحشة، إلا أن تفاقم الأوضاع المادية للبادية خلال القرن ١٩ قد شجع بعض القبائل التي تمرست بالإغارة وورثت مهاجمة القبائل المجاورة والقوافل التجارية المارة من المناطق التي تسيطر عليها أبا عن جد<sup>(٤)</sup>. لذلك تمثلت مطامع المغيرين في السطو بالدرجة الأولى على الإبل والأغنام.

وللغارة أعرافها ونواميسها والتي يمكن أن نستشفها من خلال الوصف الدقيق الذي مدنا به بعض الرحالة لغارات عاشوا وقائعها وسجلوا أحداثها. إلا أننا لا نجد أثرا لما يسبق الغارة من ترتيب كإقرار «ميعاد»<sup>(٥)</sup> وتحديد القبيلة موعد ومكان الغارة. ولنا فيما ساقه الصغير بن يوسف الباجي عن غارة قبيلة الحنانشة على عرش زواغة في منتصف القرن ١٨ أحسن مثال. فقال: «وكان إذ ذاك شاع عند الناس خبر زواغة بما عندهم من السعي ومالهم من الثروة... شاور بوعزيز (شيخ قبيلة الحنانشة) ثقاته وقد علم بما لزواغة من السعي والصياغة. قالوا له: يا شيخ إن فاتتك هذه الغنيمة، وأى غنيمة من هذه الرعية الذميمة وفؤاد البهيمة... فقال بوعزيز: عند المغرب نسيروا، وعند الصباح على القوم نغيروا والتمت على العيادة من كل عرش وأتتهم مشايخ عمدون وأولاد بوسالم وشيخة... ولما طاح الليل وركبت الخيل وتموا سايرين وعلى زواغة عاملين إلى أن طلع الفجر ولاح فوصلوا إلى منازل عرش زواغة المغرورين...»<sup>(٦)</sup>.

Chif (M. H), «Les mouvements paysans...» op. cit., p. 28.

(١) انظر

(2) Rebatel et Tiran «Voyage dans la Régence de Tunis...», op. cit., p. 306.

(3) Guérin (V), Voyage archeologique, t. 1, cit, p. 218.

(4) Mayet (V), Voyage dans le Sud de la Tunisie. Paris: Challamel, 1887, p. 354.

(٥) وهو عبارة عن مجلس يضم كبار القوم تحت إمرة شيخهم. وللميعاد مهمة أخذ القرار الجماعي في كل الشؤون التي تهم القبيلة.

(٦) الباجي (الصغير بن يوسف)، المشرع الملكي... المرجع نفسه، ص ١٥٢.

ونواصل تفاصيل الغارة مع فرسان قبيلة الهمامة المغيرة فى منطقة الجريد فى حدود سنة ١٨٧٠م حسب شهادة الرحالة الفرنسى Rebatel. يذكر هذا العالم أن «الهجومات الصغيرة تتكون عادة من خمسة إلى خمسين حصانا بينما تصل الكبرى إلى مائتين أو مائتين وخمسين فارس، ويمكن لهؤلاء أن يقطعوا تحت قيادة قائدهم أكثر من مائة وخمسين كيلوا مترا من دوارهم. وعند وصولهم قرب محط رحال القبيلة المعنية، يحاولون الاقتراب أكثر ما يمكن دون أن يفطن لهم الأهالى بأن يختفوا خلف المرتفعات من الأرض أو وسط أسرة الأودية النابضة. ثم ينقض خمسة أو ستة من أقدر الفرسان بسرعة كبيرة على الرعاة المعزولين ليجروا أمامهم ما يمكنهم حمله من الخرفان والإبل. كما يتجهون بأسرع ما يمكن نحو مقر القبيلة لحمل عدد أكبر من القطيع فى حين يبقى الفرسان الآخريين خلفهم لحماية ظهورهم ضد أى هجوم محتمل. تركز هذه الخطة البدائية على عاملى المخادعة وسرعة تنفيذ العملية. لذلك يعتمد الفرسان على قدرات خيولهم...»<sup>(١)</sup>.

أما فى الطرف المقابل فالمفاجأة تحدث ارتباكا عارما لدى كل أفراد القبيلة. فى ١٥ مارس ١٨٦٠م، عندما كان Guérin يتأهب لقضاء ليلته فى قرية جرجيس أربكه صياح تعالى فى أرجاء القرية من حناجر النسوة والأطفال<sup>(٢)</sup> وهو بمثابة المنبه للسكان فى كل الأنحاء معلنا حصول غارة يقوم بها حوالى خمسون فارس ينتمون إلى قبيلة قريبة. وقد تمكن هؤلاء من نهب بضعة مئات من الأغنام وثلاثين بقرة... وقد منعت الظلمة سكان القرية من تتبع قفا الناهبين. وبقي كل السكان على أهبة الدفاع فى حال أن يعيد الغزاة الكرة...»<sup>(٣)</sup>. اشتهرت بعض القبائل - خلال الفترة الحديثة بأكملها - بتمردها واعتمادها على قطع الطريق والإغارة. وإن تتبعنا مجالات تحرك هذه القبائل ومسارح عملياتها على امتداد القرون نرى أنها كانت تقطن مناطق نائية بالجبال الحدودية الجزائرية التونسية أو متاخمة للمناطق الصحراوية بعيدة عن نطاق نفوذ السلطة المباشرة، أو أنها كانت قبائل حليفة للسلطة تحظى بتغافل السلطة عما كانت تقوم به من عمليات إغارة فى مجالات

(١) Rebatel et Tiran «Voyage dans la Regence de Tunis...» op. cit., p. 306 يتحدث مبروك الباهى عن «الثالوث الذى كان يضمه الجواد لرجال العرش الغوارة» وهى «عناصر المفاجأة وسرعة الحركة وخفتها والهروب من الملاحقة فضلا عن دقة استعمال السلاح» الباهى (مبروك)، القبيلة...، المرجع نفسه، ص ١٧٩.

(٢) وهذا الصياح المنبه يعبر عنه المحليون «بالفرعة».

(3) Guérin (V), Voyage archeologique, t. 2, cit. p. 218.

شاسعة كانت تسيطر عليها وتروع سكانها وتجبرهم على دفع إتاوات لها مقابل حمايتها وعدم التعرض لرعاتها وقطع سبيلهم. ولم تكن تتوانى أمام مهاجمة ممثلى السلطة من جباة الضرائب أو المحلة بنفسها.

من أبرز هذه القبائل المغيرة قبيلة الحنانشة التى ذكرها كل الرحالة دون استثناء منذ بداية القرن ١٦ إلى حدود القرن ١٩. فقد ذكر Marmol هذه القبيلة فى منتصف القرن ١٦ وحدد مجال نفوذها «بغابات قسنطينة والقالة». كما قدر عدد فرسانها بـ ٥٠,٠٠٠<sup>(١)</sup>. وخص Peyssonnel هذه القبيلة فى بداية القرن ١٨ بحديث مطول ركز فيه بالدرجة الأولى على شيخها «بوعزيز» الذى كان يجلب لنفسه ولقبيلته احترام مختلف القبائل المجاورة له ومخاوف الحكومتين التونسية والجزائرية اللتان كانتا تهابانه وتعترفان له بالسيطرة على كامل المناطق الحدودية الجزائرية التونسية. «وقد تمكن بوعزيز فى العديد من المرات من صد الجيش التركى فى هذه المناطق الحدودية... وهو قوى وشديد البطش، بإمكانه أن يجمع ٨٠٠٠ ألف فارس. وفى سنة ١٧٢٤م، تكاثفت جهود داي الجزائر وبأى تونس وهاجمه جيشا الدولتين على حين غرة فأخذوا منه أكثر من ٨٠٠٠ جمل وعدد كبير من الأبقار والخيام». ويعلمنا الورتلانى<sup>(٢)</sup> فى سنة ١٧٦٦م أن إبراهيم بوعزيز الحناشى شيخ هذه القبيلة «كان فى تمرد دائم ضد باى قسنطينة؛ ولتفادى رد فعل محلة الباي فر إلى الجنوب التونسى فى منطقة الجريد»<sup>(٣)</sup>.

أما Pellissier فقد حدد موقعها فى منتصف القرن ١٩ على مشارف مدينة الكاف حيث «لا توجد إلا الحدود الطبيعية الفاصلة بين الدولتين (الجزائرية والتونسية) وتنعدم الحدود السياسية غير المعترف بها. وبصفة عامة، كل ما يعود بالنظر إلى الحنانشة هو جزائرى وكل المناطق غير التابعة لهم تونسية»<sup>(٤)</sup>.

(1) Marmol, L'Afrique de Marmol, t. 1, p. 81.

(2) هو الحسين بن محمد الشريف الورتلانى (١٧١٠م - ١٧٧٩م) من منطقة ستيف بالجزائر. صاحب كتاب «نزهة الأنظار فى فضائل علم التاريخ والأخبار» انظر تقديمها والتعليق عليها بالفرنسية.

Hadj Sadok (M), «A travers la Berbérie Orientale du XVII é S; avec le voyageur Al Warthilani», Revue Africaine, n° 428 - 429, 3é/ 4é tri. 1951, pp. 315 - 396.

(3) Ibid.

(4) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis op. cit., p. 178.

أما قبيلة النمامشة فقد اتخذت مجال تحركها عند مداخل المناطق الصحراوية وتحديدا منطقة شط الجريد. وهذه القبيلة فرضت سيطرتها على كامل منطقة الجريد بحيث «يتعرض حتما كل مسافر يقطع هذه المنطقة لبطش مجموعات قطاع الطرق المنتمين لهذه القبيلة، لكن، في فصل الربيع، عندما تتخذ محلة الباي مقرا لها عند مدينة توزر، يمكن للمسافرين المرور من هذه المنطقة بأمان»<sup>(١)</sup>.

وتبقى «قبيلة الهمامة» من أشهر القبائل المغيرة على الإطلاق. وفي تقديمه لمختلف القبائل التونسية، يعتبر Pellissier أن «لهذه القبيلة صورة سيئة من بين القبائل الأخرى، وهي تستحق هذه الصورة حسب ما شاهده. هؤلاء العرب ينهبون إلى حدود منطقة صفاقس والساحل. منذ ٣ سنوات تمكن قطاع الطرق المنتمون إلى قبيلة الهمامة من نهب جزء من الجيش النظامي عندما كان في طريقه إلى القيروان قادما من سوسة»<sup>(٢)</sup>. ويؤكد نائب القنصل الفرنسي في صفاقس Mattei هذا الأمر في إحدى مراسلاته إلى القنصل الفرنسي Léon Roches بتاريخ ١٨ يونيو ١٨٥٦م «الهمامة، قبيلة تقطن على تخوم الجريد الجزائري»<sup>(٣)</sup> وقبيلة جلاص التابعة للقيروان لا تسمحان لأي قافلة بالمرور دون أن تفرضان عليها دفع فدية. وهاتان القبيلتان تسرقان وتنهبان من مناطق قبائلنا الجزائرية لمنطقة الصوف إلى حدود مداخل تونس. ومع ذلك، تتمتع القبيلتان بحماية قصر باردو وتتباهيان بالإفلات من العقاب»<sup>(٤)</sup>.

ذلك ما يتناقض مع ما يؤكد Pellissier أنه «في كل سنة يتولى باي المحلة بنفسه أمر هذه القبيلة (الهمامة) وهو في طريقه إلى الجنوب التونسي. أي إنه يفرض عليها ضريبة مرتفعة تقدر حسب أعمال النهب التي قامت بها خلال تلك السنة. ويجب ملاحظة أن

(1) Ibid, p. 147.

(٢) تحتفظ الذاكرة الشعبية في منطقة سيدي بوزيد أن قطاع الطرق اقتسموا الغنيمة التي تحصلوا عليها بعد مهاجمتهم للمحلة بالكبوس، أي الشاشية التونسية. ولا تؤكد هذه الرواية متى حدث ذلك. وحسب رواية الرحالة الفرنسي تمت هذه العملية في حدود سنة ١٨٣٩م.

(٣) يخطئ ممثل القنصلية الفرنسية بصفاقس في تحديد مكان استقرار هذه القبيلة ولعله حدد مناطق نفوذ القبيلة. انظر الخريطة التي أوردها مبروك الباهي حول «مجال إغارات قبيلة الهمامة في القرن ١٩» القبيلة...، المرجع نفسه، ص ١٧٩.

(4) Jamoussi (H), «Les archives paroissiales, une source d'histoire régionale et locale: Les archives de l'église de Sfax comme exemple», in Recherches sur l'histoire des villages en Tunisie, Vicort, Faculte des Lettres et Des Sciences Humaines de Sfax 2008, p. 63.

هذه الضريبة تذهب إلى خزينة البيليك ولا يتحصل الذين وقع نهبهم على أى مقدار مالى منها<sup>(١)</sup>. وقد تواصل تمرد هذه القبيلة إلى الفترة الاستعمارية إذ يفيدنا Mayet سنة ١٨٨٤م أن فيالق من الجيش الفرنسى تعرضت إلى سطو القبائل الجنوبية المتمردة وبالتحديد فرع من قبيلة الهمامة<sup>(٢)</sup>.

مثل العهد الحديث إذن زمن التحولات التى تفاعلت فى بلورتها عناصر عدة أبرزها العامل السياسى وتشكل الهوية التونسية تدريجيا باستقلال الإيالة التونسية عن الباب العالى وقيام دويلات «محلّية» ساسها العنصر التركى، إلا إنها تدرجت نحو تونسنة دواليب الحكم فى تأقلمها مع المعطيات الاجتماعية والثقافية المحلية. وفى هذا الإطار برزت البداوة التونسية فى طابعها المحلى وخصوصياتها السوسيوثقافية. وقد تبلورت هذه الخصوصيات حول القبيلة التونسية التى خلقت لنفسها ذاتية تمثلت فى التدرج نحو الاستقرار والتكيف مع المعطيات السياسية التى فرضتها السلطة المركزية والعلاقات الاجتماعية الجديدة فى إطارها الريفى المتطور وفى تباينها مع الظاهرة الحضرية. إلا أن البداوة التونسية لم تتحل نهائيا عن مخزونها الثقافى الذى كرسه «علاقاتها وتحالفاتها وسجل أعرافها وتقاليدها...»<sup>(٣)</sup>.

لكن، هل آل الأمر فعلا إلى تفكك البداوة بانتهاء زمن التنظيم القبلى إن كان ذلك بفعل «الحدث الاستعمارى» أو بحكم التطور و«التحضر»؟!<sup>(٤)</sup>.

تبدو هذه الإشكالية فى صلب اهتماماتنا إذ ساعدتنا آثار الرحالة الأوربيين فى رصد تطور البداوة فى تونس الحديثة. فقد وافانا هؤلاء الأجنب فى بدايات الفترة الحديثة بصورة دقيقة عن مجتمع بدوى مشتت يضرب فى عرض البلاد التونسية دون اعتبارات جغرافية ولا قيود سياسية معتمدا نمط عيش بدوى قوامه الترحال ورعى الإبل. مما أدى إلى اصطدام عنيف بين أولى التشكيلات السياسية التركبية وهذا المجتمع «الثائر بطباعه» و«المتوحش» حسب العبارة الخلدونية. واتسم القرن ١٧ تحديدا بالصراع سجالاتا بين

(1) Ibidem.

(2) Mayet (V), Voyage dans le Sud tunisien... op. cit., p. 87 – 88.

(٣) مبروك الباهى، القبيلة...، المرجع نفسه، ص ١٧٩.

(٤) حسب مبروك الباهى، «لم يتحقق استقرار القبيلة التونسية» بمجهود سلطة الحماية إذ إن عوامل تفكك القبيلة

تمتد بعيدا قبل الحدث الاستعمارى» المرجع نفسه. انظر كذلك:

M'halla (M), «Sahara et Oasis avant la fin du bédouinisme...» op. cit.

السلطة المركزية والقبائل البدوية داخل البلاد فأينما حلت فرضت عليها الاستقرار والنظام الجبائى مجحف. ومع بواخر القرن ١٩ وتحديدًا منذ نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر أصبح الحديث عن مجتمعين من البدو: «المستقرين والمترحلين»، وعن التطور الواضح فى نمط عيش هؤلاء وأولئك نتيجة تداخل العوامل السياسية والتطور الاقتصادى الذى شهدته البلاد. فلا غرو إن اعتبرنا أن هذه نقلة واضحة فى حالة البدو فى تونس الحديثة واستنتجنا فى نهاية الأمر أن ظاهرة البداوة تدرجت قبيل الاستعمار الفرنسى إلى التلاشى بحكم عامل التكيف مع المعطيات السياسية والاقتصادية التى طبعت القرن ١٩ محليا بالإيالة التونسية وإقليميا بشمال إفريقيا. إلا أن تفكك البداوة لم يقض نهائيا على «ثقافة البداوة» التى ظلت مترسخة فى مجتمع بدوى حافظ على مخزون ثقافى قد يعود فى بعض الأحيان إلى عدة قرون خلت.

### ٣ - الخصائص الثقافية للبدو فى تونس الحديثة:

خلصنا إلى أن البداوة تشير إلى «نمط عيش مادى وثقافى» متطور يرتبط ارتباطا وثيقا بمجال جغرافى محدود وبمجموعة بشرية معينة. انطلاقا من هذه المعطيات يمكن أن نتحدث عن ثقافة بدوية تونسية تفاعلت فى بلورتها حضارتان: الحضارة العربية والحضارة البربرية أو الأمازيغية، واحتزنت مضايمها الذاكرة الجماعية للبدو على امتداد القرون. ولئن أهملت المصادر المحلية - خلال الفترة الحديثة - الجوانب الاجتماعية والثقافية لهذه الشريحة من المجتمع بسبب نظرة الاستنقاص «للأعراب» أو «العربان» «زريعة الخبث والفساد والأصل اللثيم...»<sup>(١)</sup> فإن آثار الرحالة الأوربيين جاءت تزخر بمادة ثرية تخبرنا عن مقومات هذه الثقافة البدوية التى سيقنت بالكلمة وبالصورة فى بعض الأحيان. ولعل هذه المصادر تنفرد بما قدمته لنا من وصف دقيق للحياة اليومية للبدو التونسى خلال الفترة الحديثة من كل جوانبها. وبما أن نسبة مهمة من عادات وتقاليد البدو ونمط عيشهم بصفة عامة قد اندثرت وتلاشت بحكم عاملى الزمن والتطور فإن ما ورد فى مثل هذه الآثار يصبح بالنسبة لنا مرجعا فى غاية الأهمية نتمكن من خلاله الوقوف على أبرز مقومات هذه الثقافة البدوية.

(١) ابن أبى دينار، المؤنس... ص ٢٣١.

## ١ - ثقافة البادية:

للبدو التونسيين مقومات ثقافية تختلف في مجملها عن «ثقافة البادية» في مناطق أخرى من الوطن العربي إذ إن عناصرها السوسيوثقافية هي نتاج اللقاح الذي حصل على امتداد القرون بين حضارتين عريقتين عربية وبربرية بحكم انتمائهما إلى الإطار نفسه الطبيعي الذي تستخلص منه هذه الثقافة عناصرها.

وقد وافتنا آثار الرحالة الأوربيين بأخبار متنوعة عن هذه الثقافة لما جبل عليه الرحالة أنفسهم من حب اطلاع ودقة ملاحظة حتى إنك تخال نفسك أمام مشاهد حية من الحياة اليومية للبدو رحلا كانوا أو مستقرين. ولئن صنف هؤلاء الأوربيين البدو على امتداد مختلف الفترات حسب جذورهم إن كانوا عربا أو بربرا وحسب لهجاتهم التي لفتت انتباههم أو حسب استقرارهم أو ترحالهم بين مختلف مناطق البلاد التونسية، فإنهم لم يفرقوا في رصدهم لمختلف أوجه حياة البدو بين هذه الأصناف إن كان مستقرهم في الجبال أو السهول أو الصحارى أو متنقلين بين هذه المناطق. فالبدوى خلال كامل الفترة الحديثة يتصف في نظرهم بالأوصاف نفسها خصالا كانت أو عيوبا. وحتى خلال القرن ١٩ عندما نزعت البداوة إلى الاستقرار وتأقلمت بعض المجتمعات البدوية مع استقرارها فهي أبقى على طابعها البدوى و«ثقافتها البدوية». وقد لفت انتباه الرحالة الأوربيين أن البدو «هم أكثر الشعوب محافظة على عاداتهم وتقاليدهم... فهم يعيشون مثلما عاش آباؤهم الأولون. لهم العادات والتقاليد وطريقة التغذية نفسها ولهم اللباس نفسه...»<sup>(١)</sup>. كما أنهم «أعرضوا عن التحضر وما حدث في المدن من تغيرات متواصلة أثرت على نمط عيش سكانها»<sup>(٢)</sup>. ويمكن أن نمحور أبرز ما ذكره لنا هؤلاء الأوربيون عن «ثقافة البداوة» في صور أربع:

### ( أ ) صورة البدوى:

قدمت لنا كتب الرحالة على امتداد الفترة الحديثة البدو بالكلمة والرسم والصورة الفوتوغرافية، منذ نهاية القرن ١٩، بكامل تراب البلاد التونسية، ووقفت على أدق الجزئيات كوصفها لبشرة البدوى وهيأته الخارجية ولباسه، مما مكننا من استكمال ما سبق

(1) Cuoq (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 49.

(2) Shaw (T), Travels observations... op. cit., t. 1, p. 390. 159.

من ذكر لطباعه ونمط عيشه وعلاقاته بالسلطة وببني جنسه. وتبرز هذه الأوصاف التي انفرد بها الأوروبيون، في الاهتمام الخاص الذي حظى به هذا الرهط من التونسيين. رسم كل الرحالة الصورة نفسها للبدو الذي بدا لهم أقرب إلى الوحشية من حيث هيئته الخارجية، خلافا لكونه أسمر اللون، ذا بشرة تميل إلى السواد وأشعث الرأس، فهو حسب الوصف الذي قدمه Peyssonnel في بداية القرن ١٨، لا يرتدى إلا «عباءة من الصوف يسمونها سوفيسالي»<sup>(١)</sup> يصل طولها إلى أربعة أمتار وعرضها متر واحد. وتحل هذه العباءة محل القميص والجوارب والسروال والسترة والقبعة. يربط جزءا منها تحت يده اليسرى ويسقطها حتى الأرض ثم يرفعها على الجانب الأيمن ويضعها على رأسه»<sup>(٢)</sup>. ويضيف الأب Poiret في نهاية القرن ١٨، أن «الأعيان والأشراف يتميزون بارتداء قميص كبير من الصوف طويل وعريض الأكمام يحمل في أعلاه غطاء للرأس وينسحب على كامل جسمه إلى الأسفل، وتزينه شرابة من الحرير حول فتحة الصدر والعنق أما رؤوسهم فهي مغطاة بعقال قد من شعر الجمل...»<sup>(٣)</sup> بدو الصحراء»<sup>(٤)</sup>.

أما البدوية، فقد حظيت باهتمام أكثر من الرجل بل أثارت فضول هؤلاء الأجانب الذين سعوا بجرأة أكثر إلى التعرف عن قرب على محاسنها، على غرار ما قام به نائب القنصل الفرنسي Pellissier عندما دفعه فضوله للتكشف على فتيات كن يغتسلن في واد مرق الليل متعللا بأنه ضل طريقه، فانبهر بجمالهن الطبيعي وهن نصف عاريات»<sup>(٥)</sup>. ارتسمت تقريبا الملامح نفسها للبدويات في آثار هؤلاء الأجانب خلال الفترة الحديثة مثلما صورهن أبو الحسن الوزان «مكتنزات شحما ولحما، أردافهن غليظة ونهودهن بارزة

---

(١) لعل السوفيسالي كان يطلق في تونس على العباءة التي يرتديها الرجال في البادية ثم أصبحت تشير إلى اللحاف الذي ترتديه النساء في المدن عند خروجهن من بيوتهن للشوارع ويتكون من قطعة قماش عريضة من الحرير غالبا، تضعنها على رؤوسهن وتربطنها على خصورهن برباط من القماش.

(2) Valensi (L), J. A peyssonnel, voyage dans la Régence de Tunis... op. cit. p. 138.

(3) Léon (l'Africain), De l'Afrique... op. cit., t. 1, p. 59; poiret Abbé, Voyage en Barbarie... op. cit., p. 229.

(4) Mayet (V), Voyage dans le Sud tunisien... op. cit.

(5) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis op. cit., p. 206.

غير أن خصورهن في غاية من الرقة...»<sup>(١)</sup>. ويبدو أن السمينة هي إحدى مفاتيح البدوية والحضرية على حد سواء، شأنهما في ذلك شأن المرأة العربية عموماً<sup>(٢)</sup>. وتتباهى البدوية بسمنتها بل تحاول إبرازها بلباسها الفضفاض الذي يتكون من «قميص أسود اللون له كمين واسعين فوقهما غطاء أزرق أو أسود تلتحفه وتشد جزءاً منه بمشبك من الفضة على صدرها... ولكي تتباهى بجمالها تضيف البدوية الشابة أشكالاً مختلفة باللون الأزرق على أجزاء عديدة من جسمها مستعملة شوكة حادة ومحلول الزنك الخالص<sup>(٣)</sup> وتكحل عينيها»<sup>(٤)</sup>. كما تتجمل بحلى مختلفة، «فهى تضع أقراطاً في آذانها وحلٍ من الفضة وفي أرجلها (خلاخل) وأساور في معاصمها (دبلج) على طريقة البلاد...»<sup>(٥)</sup>.

أثرت مختلف الحضارات التي تعاقبت على البلاد التونسية، وتحديدًا البربرية والعربية، على مكونات وطرق التجميل لدى المرأة البدوية. فالوشم والحناء والكحل والسواك كلها طرق للتجميل ورثتها البدويات - كما الحضريات - عن جداتهن البربريات والعربيات وعن أقدم الحضارات كالحضارة المصرية القديمة. فعادة التكحل هي فرعونية «استعملتها النساء والرجال على حد سواء للتجميل وخاصة للتداوى من بعض الأمراض»<sup>(٦)</sup>. يعطى التكحل جمالاً للبدوية لا نظير له وسر هذا الجمال يظهر جلياً في «النار المشتعلة من عينيها... فهى تحذق إرسال

(1) Léon (l'Africain), De l'Afrique... op. cit., t. 1, p. 59.

(2) يذكر الطبيب الخاص لعمود باشا باي Louis Frank أن النساء بمصر كن يتعمدن الأكل بشراهة ويضفن إلى طعامن بعض الحشرات والزواحف 107 pp. op. cit., Marcel (J. J), Tunis...  
انظر:

Jamoussi (H), «L'image de la femme tunisienne a l'époque moderne à travers les témoignages des Européens», Arab Historical Review For Ottoman Studies, n°33, F. T. E. R. S. I, septembre 2006, pp. 45 - 62.

(3) يمدنا Peyssonnel بالطريقة التي تعتمدها الفتيات البدويات للوشم: «تنشر الفتيات على الأجزاء التي تريد وشمها مادة زرقاء حمراء أو سوداء ثم تخز الجلد بإبرة حادة مشكلة رسوماً حسب رغبتها. وهذه الرسوم لا تمحى فيما بعد. وحتى الرجال فهم يوشمون أذرعهم أحياناً» Valensi (L), Voyage... op. cit., p. 139.

(4) Marmol, L'Afrique de Marmol, op. cit., t. 1, p. 88.

(5) Ibidem.

(6) Shaw (T), Travels observation... op. cit., t. 1, p. 394.

نظراتها ولا يمكن لأي امرأة أخرى أن تنافسها في ذلك...<sup>(١)</sup>. «وحك الأسنان والشفاه بقشرة شجرة الجوز يعطى الفم رائحة طيبة. وحسب اعتقادهم يحافظ ذلك على الأسنان التي تبدو، فعلا، ناصعة ومصطفة...»<sup>(٢)</sup>. أما الحناء فهي أشهر مواد التجميل على الإطلاق لأنها استعملت في كل الحضارات. «خلافًا لتخضيب الشعر تستعمل النساء أوراق شجرة الحناء بعد طحنها للتعطر فتضعنها داخل ثيابهن. كما أن لهذه النبتة فوائد على إثارة الشهوة الجنسيّة...»<sup>(٣)</sup>. كما مدنا الرخالة بطرائف الروايات الشعبية التي نسجت حول بعض البدويات التي راج صيتها بين القبائل. مجدت هذه الروايات جمالهن وشجاعتهن على غرار «الكاهنة» و«الجازية الهلالية». أمّا خلال الفترة الحديثة فقد برزت بعض النساء الأخريات من بينها «علجية» بنت شيخ قبيلة النمامشة التي دوخت الأتراك في نهاية القرن ١٧ عندما قادت فرسان قبيلتها وواجهت عساكرهم الذين داهموا القبيلة المغيرة لإذعانها وهزمتهم<sup>(٤)</sup>. أو «الغالية» بنت شيخ جرجيس التي قابلها Pellissier وانبهر بجمالها وشجاعتهما «التي تضاهاى شجاعة الرجال؛ إذ كثيرا ما كانت تتواجد فى الصفوف الأولى من المعارك تقود فرسان قبيلتها»<sup>(٥)</sup>. وبصفة عامة، كانت «النساء ترافق الرجال فى رحلاتهم وحروبهم لتشجيعهم وللطمأنان بوجودهن إلى جانبهم»<sup>(٦)</sup>. يحملونهن فوق الجمال فى شبه نقالات من الخيزران لا تسع إلا لشخص واحد»<sup>(٧)</sup>.

### (ب) الكرم من شيم البدو:

لم يكن الكرم مصطنعا فى حياة البدو بل هو إحدى شيم العرب قاطبة والبدو على وجه التحديد. ولقد اعتبر صاحب المقدمة أن «البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة» حتى «وإن

(1) Pananti (F), Relation d'un séjour à Alger... traduit de l'anglais par Normant, Paris, 1820, p. 342.

(2) Marcel (J. J.), Tunis, description de cette Régence... op. cit., p. 106.

(3) Ibid, p. 108.

(4) Valensi (L), Voyage... op. cit., p. 176.

(5) Pellissier (E), Description de Régence de Tunis op. cit., pp. 165 – 166.

(٦) منذ الجاهلية كانت المرأة تتباهى بمرافقتها للرجال فى ساحة الوعى وتنسج لذلك أشعارا على غرار:  
نحن بنات طارق، نمشى على النمارق، إن تقبلوا نعانق، إن تدبروا نفارق.

(7) Marmol, L'Afrique de Marmol, op. cit., t. 1, p. 88.

كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم (أهل الحضن)... فهم أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد ما ينطبع في النفس من سوء الملكات...»<sup>(١)</sup>. وقد أكد كل الرحالة الأوروبيين بدورهم ودون استثناء، هذه الخصال لدى كل البدو الذين اعترضوا سبيلهم. بل إن البعض اعتبر «حسن الضيافة» إحدى القيم «الصادقة» التي حافظت عليها هذه الشعوب على «فطرتها» وطبيعتها البدائية في حين اندثرت في أوروبا وأصبحت «مفتعلة»<sup>(٢)</sup>.

وحسب Dr Shaw «الكرم هو عادة قديمة أصبحت بمثابة قانون لدى هذه الشعوب إذ إنهم يقدمون للصباحي<sup>(٣)</sup> ولكل من كان معه «المونة»<sup>(٤)</sup>، أى الزاد الضروري لهم ولخيولهم». بل إن الاستقبال كان غالباً ما يتعدى حدود الواجب نحو ممثل السلطة. وحسب الوصف الذى مدنا به هذا الرحالة الشهير، يتنافس أصحاب الخيام على استقباله وإيوائه بصحبة رفقة. وكلما حلوا بدو أو بتجمع بدوى، أسرع البدو بالاحتفاء بهم فيقدمون لهم «أوعية كبيرة من الحليب وسلّة من الغلال والفواكه فى بداية الأمر ثم يقومون بذبح شاه أو خروف أو ماعز على شرفنا...»<sup>(٥)</sup>.

وانبهر الكاتب الفرنسى الشهير Flaubert<sup>(٦)</sup> من ناحيته بالحفاوة<sup>(٧)</sup> التى حظى بها عندما استقبلته النساء بالزغاريد بينما كان صاحب الخيمة يذبح أكبر خرفانه، ثم تلذذ بأكله الكسكسى مع حليب الناقة. وانتهت المأدبة بأن خصّصوا له أفضل الخيام لقضاء ليلته. وذكر Guérin من ناحيته أنه ما مرّ بإحدى قبائل البدو الرحّل أو المستقرّين إلا وأكرموه وأقام بينهم تحت خيمة نصبت له خصيصاً وذبحت له ولمن رافقه الخرفان<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة... المصدر نفسه، ص ١٥٣.

(2) Poiret Abbé, Voyage en Barbarie... op. cit., p. 229.

(٣) الصباحية هم الشرطة فى المدن. خصص البايات هؤلاء لرافقة الأجانب عبر مناطق الإيالة لحمايتهم.

(٤) هى عادة فرضها البايات على القبائل عند مرور «المحلة» بأن تقدم للباى وحاشيته ولخيولهم «مؤونتهم». ثم أصبحت بمثابة قانون يجبر كل المجموعات البدوية على تقديم الغذاء والراحة لممثلى السلطة ومرافقيهم.

(5) Shaw (T), Travels observation... op. cit., t. 1, introduction.

(٦) هو من أشهر الكتاب الفرنسيين. زار تونس فى نهاية خمسينيات القرن ١٩ لجمع المعلومات لكتابه قصته الشهيرة «صلامبو».

(٧) عبّر عن هذه الحفاوة «بالتربية البدوية».

Flaubert (G), Carnet de voyage à Carthage, texte établi par Claire - Marie elavoye, publication de l'université de Rouen 1999, p. 146.

(8) Guérin (V), Voyage archéologique... op. cit., t. 2, op. cit., p. 358.

## (ج) الاحتفال والشعر والغناء:

هي عناصر ثلاثة لا يمكن التفرقة بينها؛ إذ إن المناسبات الاحتفالية المتمثلة أساسا فى الأعراس لا تتمّ إلا إذا التقى فيها الشاعر والمغنى وفى غالب الأحيان يكون المغنى هو نفسه شاعرا. إلا أن الأوربيين، بحكم اختلاف ثقافتهم الغربية لم يستسيغوا الأهازيج البدوية بل اعتبروها ضربا من ضروب «الضحيج» الذى لا يعتمد على مقاييس ثابتة أو علمية ويتمثل فى نغمة واحدة يكرّرها الشاعر فى كل المناسبات. ومع ذلك، تعجبوا من قدرة البدو على الارتجال وإلقاء القصائد الغنائية على امتداد ساعات<sup>(1)</sup>. ويؤكد Shaw أن لهم قدرة غريبة على «حفظ الألحان معتمدين على السمع فقط دون العودة إلى الكتب... وقد استمعت إلى بعضهم يتغنون طوال الليل دون أخطاء ودون أن تظهر عليهم ملامح التعب»<sup>(2)</sup>. كما وافانا الرحالة أنفسهم بوصف دقيق لبعض الآلات الموسيقية المستعملة كآلة «الربابة» وهى عبارة عن كيس له خيط واحد، و«الفصبة» وهى ناي كأبسط ما يكون فتح من طرفيه وبه ثلاثة أو أربعة ثقوب. أما الطار البدوى فهو آلة إيقاع أحاطوا جوانبها بصفائح صغيرة من الفولاذ. وعندما تصطم ببعضها، حسب قوة الضربات على الجلد، تحدث أصواتا أو إيقاعات عذبة عند سماعها»<sup>(3)</sup>. أما أطرف ما وافانا به هذا الرحالة هو مقتطفات لبعض الأغاني البدوية اعتمد ترقيمها حسب السلم الموسيقى بحيث يمكننا قراءة ألحانها ومقارنتها بما توارثته الأجيال من موسيقى بدوية<sup>(4)</sup>.

## (د) الصيد والغذاء:

امتازت حياة البدو بشطف العيش والأقوات «يتناولون بها يسيرا بعلاج أو بغير علاج»<sup>(5)</sup>. ويعتمد غذاؤهم على إنتاج الأراضى التى يفلحونها لذلك «تختلف عاداتهم وطريقة معاشهم باختلاف المناطق التى يقطنونها... فعرب إفريقية بين الأطلس والبحر

(1) Marty (P), «Les Chants lyriques populaires du sud tunisien: étude, textes et traduction», in Revue Tunisienne, n° 25, 1 er trim. 1936, pp. 93 – 136.

(2) Shaw (T), Travels observation... op. cit., t. 1, p. 349.

(3) Ibidem.

(4) Ibidem.

(5) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة... المصدر نفسه، ص ١٥١.

المتوسط، يحرقون الأراضي الخصبة ويحصلون منها على كميات وافرة من الحبوب»<sup>(١)</sup>. يستخرج البدو من هذه الحبوب أنواعا مختلفة من الأكلات التى لا تزال تمثل الغذاء الأساسى للمناطق الريفية عموما. وقد مدّنا Peyssonnel بقائمة من أشهر هذه الأكلات : «فخلافا للكسكسى»<sup>(٢)</sup>، يأكل البدو فى المناطق الخصبة «البازين» وهو طحين القمح يخلط بالماء والعسل ويطبخ فى قدر من الفخار حتى ييبس... كما يأكلون «البسيصة» وهى طحين الحمص والشعير يخلط بالماء، وفى بعض الأحيان بالحليب. كما يأكلون «العصيدة» وهى كذلك طحين القمح يضيفون له الحلبة ويطبخونه فى شكل ثريد... ويكتمل غذاؤهم ببعض الفواكه التى تنبت فى مناطقهم...»<sup>(٣)</sup>.

أما الخبز المتوفر لدى المجتمعات الحضرية، أو الرغيف حسب تسمية بعض المناطق، فهو غذاء نادر «يخصص للمناسبات أو عندما يحل عند البدو صيف مبجل». وتتم صناعته على مراحل. «بعد فصل حبات القمح أو الشعير عن قشرته الخارجية تقوم النساء برحيه برحى يدوية ثم غربلته وأخيرا تقمن بعجن الطحين المتحصل عليه بالماء أو بالحليب أو بالزيت. يطبخ ذاك العجين فوق الرماد أو فى أوعية فخارية»<sup>(٤)</sup> فى المناطق الصحراوية، وهى «ثرية بمختلف أنواع الحبوب والأشجار، خلافا لما يتهيأ للبعض، تنبت غراسة ثمينة طولها قدر قدمين وتخرج حبة الدرع التى تعوض قمح المناطق الأخرى. يكتفى أغلبية سكان المناطق الصحراوية بطحين الدرع الذى يصنعون منه عجينا يضيفون له حليب الناقة ويطبخونه فى قدر من الخشب على حجارة احمرت فى النار، وهى طريقة بدائية نجدها لدى الشعوب الآسيوية أو الأمريكية...»<sup>(٥)</sup>.

اعتمد البدو لاكتمال غذاؤهم على صيد الحيوانات البرية إن كان ذلك فى الغابات أو المناطق السباسبية أو حتى فى المناطق الصحراوية التى كانت تعيش بها أنواع مختلفة

(1) Léon (l'Africain), De l'Afrique... op. cit., t. 1, p. 60.

(٢) وهى أكلة البربر من أقدم العصور، توارثها الأجيال وانتشرت فى كامل أرجاء شمال إفريقيا.

(3) Valensi (L), Voyage... op. cit., p. 242.

(4) Cuop (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 52.

انظر كذلك Peyssonnel فى ذكر مطول عن طرق أخرى لصنع الخبز وعن مختلف أنواع الأكلات البدوية. Valensi (L), Voyage... op. cit., p. 141.

(5) Cuop (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 52.

من الحيوانات البرية. يذكر Venture De Paradis في نهاية القرن الثامن عشر أن المناطق الصحراوية: «ثرية بالأرانب البرية والغزلان الصحراوية والجواميس الوحشية والأسود»<sup>(١)</sup> والنمور<sup>(٢)</sup>. أما الطيور فهي عديدة ومتنوعة وخاصة منها ذاك النوع الضخم الذي يهدى ريشه للجميلات الأوروبيات كى تتحلين به. أما لحم النعام وبيضه فهو يلعب دورا أساسيا في الدورة الغذائية لسكان المناطق الصحراوية الرحل. ويمثل ريش «الجمال المجنح»<sup>(٣)</sup> أهم المنتوجات الفلاحية التي تعرض في الأسواق الأوروبية<sup>(٤)</sup>.

يحدثنا Frank مطولا عن صيد النعام فيقول: «يركب الصيادون خيولهم بعد أن يتأكدوا من كونهم حملوا معهم نصيبا من ماء الشراب. تبدأ عملية الصيد في حدود منتصف النهار في الفترة التي تتجمع فيها النعامات في مجموعات تعد بالمئات. عندما تفتن النعامات لوجود الصيادين تفر في كل الاتجاهات، وعندها ينطلق الصيادون خلفها. تتواصل عملية التسابق هذه في بعض الأحيان أربع ساعات بدون انقطاع إلى أن تنهار الحيوانات من شدة الإرهاق وتشل حركتها وتتوقف نهائيا عن الجرى. عندها ينزل الصياد من حصانه ويقطع رأس النعام ويضع الجثة على ظهر الجمال ثم يعود للبحث عن طريدة ثانية. وقل أن يتحصل الصياد على أقل من نعمتين»<sup>(٥)</sup>. يسلم الصياد جلد النعام «بضرب الجسم بقبضة اليد حتى ينفصل الجلد عن العظام. ثم يقوم بإخراج مواد النعام الدسمة أولا في شكل سائل يضعه في وعاء. وعندما يتجمد يستعمل كدواء لجبر الكسر ولبعض الأمراض الجلدية الأخرى»<sup>(٦)</sup>.  
تطالعنا في بعض الأحيان طرق طريفة لصيد حيوانات برية أخرى ذكرها رحالة كانوا قد سمعوها عن سكان البادية. فلصيد الغزلان، «تقلد النسوة تغاءها الرقيق لجالبها ثم يتولى

---

(١) اندثر الأسد الصحراوي والأطلسي منذ منتصف القرن التاسع عشر إذ إن آخر من تحدث عن الأسود والفهود في تونس هو Dunant الذي أقام في تونس ما بين ١٨٥٦م و١٨٥٧م. ويذكر Andre Louis أن آخر أسد قتل في جبال خمير سنة ١٩٣٢م.

(٢) لعله يعنى الفهود وهي بدورها اندثرت في الفترة نفسها.

Louis (A), Nomades d'hier et d'aujourd'hui dans le sud tunisien, édisud, Aix - en - province, 1979, p. 101.

(٣) هي عبارة أطلقها الأوروبيون على النعام منذ القدم.

(4) Cuop (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 51.

(5) Marcel (J.J), Tunis, description de cette Régence... op. cit., p. 123.

(6) Louis (A), Nomades d'hier,... op. cit., p. 110.

الرجال قتلها»<sup>(١)</sup>. كما «تتولى النساء كذلك جلب أنثى الضباع بالزغاريد ثم يتقدم نحوها أحد الصيادين قائلاً: تعالي يا جميلتي سوف نخضبك بالحناء ونزوجه ونهديك حلياً... عندها تتقدم الضبعة فيمسد الرجل على قدمها ويطلبه بروت البقر واضعا حولها عقدة يجرها الصيادون الذين يرافقه ثم يلجمون فم الحيوان»<sup>(٢)</sup>. أما الأسود فهي كانت ترزع المناطق الجبلية وتهاجم القرى والدواوير فتقتل الأبقار والخرفان. لذلك يقوم الرجال من حين لآخر بحملات شاسعة ضد هذه الحيوانات الوحشية. «ويقال إن الأسد يخاف النساء أكثر من الرجال وأن بعض النسوة يهاجمن الأسود وهي تصيح في وجهه فاتحة صدرها: ألا ترى أنني امرأة. فيتراجع الأسد مولياً إلى الوراء»<sup>(٣)</sup>.

## ٢ - ثقافة الترحال

### (أ) النجعة

تدرجت حياة بعض القبائل، وتحديدًا تلك التي سكنت المناطق الوسطى للبلاد التونسية، نحو الاستقرار في مناطق محددة خلال القرن ١٩، بينما أبقّت قبائل أخرى على ترحالها كنمط عيش ارتبط مباشرة بظاهرة حضارية توارثها الأجيال عبر القرون. فالهجرة الجماعية، أو «النجعة»، حسب العبارة البدوية، مثلت إحدى مقومات حياة البدوى خلال الفترة الوسيطة وحتى الفترة الحديثة، وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتمسك البدو بحريتهم المطلقة في الطبيعة دون قيود تجبرهم على الاستقرار في مكان واحد أو الإكراه على العيش داخل تجمعات حضرية. وفي صور استقرار بعض القبائل في مناطق متاخمة للمدن الكبرى، بحكم معاملاتها التجارية مع أهاليها، فإنها تبقى على نصيب من حريتها للانتقال في أي وقت تشاء إلى مناطق أخرى..

لاحظ جل الرحالة الأوربيين الحركية التي كان عليها الوسط التونسي على امتداد السنة؛ فالقبائل تنتقل في شكل جماعي في كل الاتجاهات، ومن بينها، ذكر Pellissier

(1) Pellissier (E), Description de la Régence de Tunis op. cit., p. 135.

(٢) قد يكون المثال التونسي «حصل كيف الضبع» أي حصل في الفخ مثل الضبع وقع استقاؤه من طريقة صيد الضبع هذه.

Flaubert (G), Carnet de voyage... op. cit., p. 35.

(3) Valensi (L), Voyage... op. cit., p. 168.

إحدى القبائل اليهودية التونسية ، «وهي من بطون قبيلة دريد ، يتكلم بدو هذه القبيلة العربية ويتمسكون بعبادات وتقاليد القبائل العربية الأخرى. ولا يختلفون عنهم إلا دنيا. بعضهم حدادون وبعضهم صائغون والبعض الآخر من الفلاحين أو رعاة. يهود فلاحون ، إنها فعلا غرابة يجب أن نلفت لها الانتباه...»<sup>(١)</sup>.

للنجعة قوانينها وترتيباتها التي سارت عليها القبائل التونسية منذ القدم كما يؤكد ذلك أحد شيوخ قبيلة المرازيق لباحث فرنسي في بداية القرن ٢٠ : «كان مرازيق هذه الفترة (قبل دخول الاستعمار) يرحلون كلهم ، ما نسميه «ترحال الكل»... ولا يبقى في الدوار إلا بضعة عائلات ، تلك التي لا تملك «لا باع ولا بيع»<sup>(٢)</sup>. وهي التي تتولى حراسة الدوار وسقى النخيل. وفي بداية فصل الشتاء<sup>(٣)</sup> يتقرر اليوم الذي يتم فيه الرحيل<sup>(٤)</sup>. عادة ما يكون الإثنين إذ إن يوم الأربعاء يتطير منه أهالي القبيلة ويوم الجمعة يخصص للراحة. قبل ذلك ، تكون النسوة قد أعدت الخيام وما يلزم من المؤونة<sup>(٥)</sup> في احتفال بهيج. كما تقوم النسوة كذلك بزيارة زوايا الأولياء الصالحين حيث تجمع بعض الحجارة التي تحتفظ بها طوال الرحلة وذلك لحماية الرحل من الأمراض ولقذفها في وجه العدو إذا تمت مهاجمة القبيلة»<sup>(٦)</sup>.

وقد تغنى شعراء قبيلة المرازيق «بالنجعة»<sup>(٧)</sup> :

### نجع الرحيل

(1) Fallot (E), Une excursion à travers la Tunisie... op. cit., p. 9.

(٢) بمفهوم «لا جمل ولا شاه».

(٣) قد يوافق الموعد بداية فصل الربيع بالنسبة لقبائل المناطق الشمالية.

(٤) يعود قرار الرحيل «لميعاد» القبيلة وهو مجلس كبار القوم الذين يقررون كل ما يهم شؤون القبيلة.

(٥) تتمثل المؤونة أو الزاد في «نوع من طحين الشعير أو القمح يقع عجنه بالماء أو بالحليب والشريح» أي التين

المجفف.

Cuop (J), Venture De Paradis... op. cit., p. 52.

انظر:

(6) Boris (G), Documents linguistiques et ethnographiques sur une région du sud tunisien (Nefzaouo); Paris. 1951; p. 56.

(٧) جمع أحد القادة العسكريين الفرنسيين في بداية القرن العشرين أشهر القاصد لقبيلتي ورغمة والمرازيق بالجنوب

التونسي وأغلبها يعود إلى القرن التاسع عشر.

Marty (P), «Les Chants lyriques populaires du sud tunisien: étude, textes et traduction»,

in Revue Tunisienne, n° 25, 1 er trim. 1936, pp. 93 – 136.

(حمل ليلا)	هز فى الليل
(الإبل التى ترحل)	ساق المراحيل
(فى الفجر ساروا)	من بكرة الفجر سارى
	لا ضو لا ثم قنديل
(تحملهم الإبل)	عالبل تحميل
(ضوء القمر سهل السير)	مياح القمر طلعت سهيل
(الذراى : الأطفال الصغار)	هز النسا والذراى
	أولاد ركبت عالخيل
(السيوف المصقولة)	أهل السيوف المصاويل
(أهل الثناء والأفعال الحميدة)	أهل الثنا والفعاعيل
(تركب البلاء و الأخطار)	أهل البلاء والخطارى
(شرقت وقبّلت فى سيرها)	شرّق وقبّل تقبيل
(ساروا دون توقف)	لا بات لا حط الثقيل
( ساروا المسافات البعيدة و توغلوا فى الصحارى)	طوح و خش الصحارى
(تبحث عن السيول الجارية)	تحوّم على مازق السيل
(فتح ربيعها بكل ألوانه)	ربيعه فاتح تخابيل
(أكلت وتغذّت الغنم والنوق الصغير البكى)	تبلّات الغنم والبكارى
(أعشاب صحراوية)	باقل و شيخ و قنديل
	عود الرتم و الزهارى
	نزله فى ساعة وقبيل
	أهل الطرب والطبابيل
(الجراويل : السيول الجارية)	يلقوه عامل جراويل
	صنعة خليقة البارى
(لا يتاجرون ولا يستعملون كيلا)	لا سوق لا يعرفو كيل
(الخيام التى تظلّ عليهم)	أهل التظليل
(لهم الأغنام بدون حساب)	أهل الغنومات بالهيل

(حياتهم كلّها أعياد جارية)	أهل الأعياد الجرارى
(لا يسكنون البيوت التى تقفل)	ما يسكنوش المقافيل
	كان الخلا والبرارى
(يبحثون على الفتن قصدا)	يدوّرو على الفتن تعميل
(ما بين المنازل)	بين المنازل
(يطعنون بالسكاكين)	يطاعنوا بالغدارى
(ويلى من لابسات الخلاخل)	نحوى على لابسات الخلاخيل
(من أجلهن أغير)	منهم سبايب غيارى
(نيران قلبى تجوش)	نيران جاشى مشاعيل
(مثل الشمع المحترق)	زى المفاتيل من أم عيون المذابيل
(اشتعلت نيرانى)	شعلت مقاييس نارى

### (ب) الخيمة والدوار

تمثّل الخيمة العنصر الأساسى الذى تركز عليه حياة البدوى؛ فهى بيته الذى يلجأ إليه فيحميه من الحرّ والبرد. وفى تجمّعها أمان له ولأرزاقه وأبنائه. عند استقرار القبيلة، تضرب الخيام فيصل عددها فى بعض الأحيان إلى ٢٠٠ أو ٣٠٠ خيمة. وهى تشكل «قرى محمولة ينقلها أصحابها من هنا وهناك فى أى وقت بحثا عن المراعى. وينظم الأعراب الخيام فى شكل دائرى الواحدة قرب الأخرى تاركين مدخلين الأول مخصص لدخول وخروج الأهالى والثانى لإدخال وإخراج الدواب. يقع غلق هذين البابين ليلا بأغصان الأشجار والقش، فتقوم الخيام بذلك بدور الحصن الحامى للسكان والدواب المجمعة فى الوسط من الحيوانات الوحشية كالأسود والغارات الخارجية»<sup>(١)</sup>.

«تسمى الخيام – تلك القوارب المقلوبة – بهذا الاسم، نظرا للظلال التى توفرها، كما تسمى بيت الشعر... تصنع هذه البيوت بالطريقة نفسها التى صنعت بها منذ العهد الرومانى من شعر الإبل. كلها تتشابه ولا تختلف إلا فى حجمها، حسب عدد الأشخاص الذين يسكنونها. يحمل القماش الذى صنعت منه على أعمدة، وتقسم بداخلها عن طريق

(1) Léon (l'Africain), De l'Afrique... op. cit., t. 1, p. 191.

ستائر إلى شبهه غرف. يدق صاحب الخيمة على الأعمدة معقفاً من المعدن حيث تعلق الثياب والآلات الفلاحية وسروج الخيول والأسلحة...»<sup>(1)</sup>. يمتلك شيخ القبيلة أكبر خيمة وهي ميزة والعلامة الدالة على رفعة مكانته بين أفراد المجموعة. وقد انبهر Fallot بإحدى هذه الخيام إذ لم يكن يتوقع كبر حجمها. «يبلغ وسط الخيمة، بدون مبالغة ارتفاع الطابق الأول لعمارة ذات أسقف مرتفعة. يفصلها في الوسط ستار كبير يقسمها إلى نصفين متساويين. يخصص أحدهما للنساء والأطفال. وعند الرحيل يتطلب حمل هذا البيت المتميز عدة جمال»<sup>(2)</sup>.

### الخاتمة:

اعتماداً على آثار الرحالة الأوربيين تتراءى لنا صورة البدوى التونسي خلال الفترة الحديثة مثلما رسمها لنا أجاناب عن الحضارة العربية. صورة اعترتها في بعض الأحيان قلة الوضوح والاستغراب بحكم انتماء هؤلاء الثقافي، وعدم قدرتهم على فهم حياة البداوة فالتجأوا غالباً إلى معاييرهم الغربية للحكم على هذا النمط من العيش. إلا أن دقة الوصف والوقوف على جزئيات حياة البداوة على امتداد الفترة الحديثة ساعدنا على رصد ديناميكية البداوة في تونس الحديثة وذلك من حيث تطورها من نمط عيش اعتمد على الترحال أساساً خلال الفترة الوسيطة وبوادر الفترة الحديثة إلى شبه استقرار عندما تشكلت خصوصيات القبيلة التونسية وارتبطت بالأرض وبالتالي «الموطن»، فإلى الاستقرار النهائي منذ منتصف القرن ١٩، قبيل الاحتلال الفرنسي. وما قام به الاستعمار في مجال فرض الرقابة على القبائل التونسية المتحركة والمتنقلة من الجنوب نحو الوسط والشمال لا يفسر بمفرده الاستقرار النهائي للقبائل التونسية في «موطن»<sup>(3)</sup> محدد. فالعوامل التي دفعت بالقبائل إلى الاستقرار متعددة وهي سابقة للفعل الاستعماري تمثلت أساساً في تتبع السلطة المركزية القبائل أينما حلت وفرض نظام جبائي مجحف عليها. كما ساهم تطور المجال الجغرافي/الاقتصادي في تونس الحديثة في تطوير نمط عيش البدو نحو الاستقرار.

(1) Shaw (T), Travels observation... op. cit., t. 1, p. 369.

(2) Fallot (E), Une excursion à travers la Tunisie... op. cit., p. 8.

(3) غالباً ما يكون الحديث عن «وطن» القبيلة أي المنطقة التي تستقر فيها وبطونها وتدافع عنها من القبائل الأخرى المناهضة لها أو المغيرة.

وتمثلت الإشكالية الأم التي حاولنا إبرازها من خلال دراسة الواقع البدوي في إيالة التونسية في الفترة الحديثة، في الوقوف على أبرز مظاهر الثقافة البدوية التونسية والتأكيد على تشكل بداوة تونسية صرفة بحكم الواقع الجغرافي والسياسي والاجتماعي والثقافي الذي تميزت به تونس خلال هذه الفترة. ووافتنا آثار الرحالة الأوربيين في هذا الصد برصيد هائل من المعلومات والإخبار عن هذه الثقافة البدوية مما ساعدنا على بناء صورة حياة البدو من كل جوانبها بعاداتها وتقاليدها وأفراحها وأتراحها في استقرارها وترحالها. وهذه العادات تمثل في نهاية الأمر مخزوننا ثقافيا تلاشى بحكم عامل الزمن والتطور. ذلك ما لم نعتز عليه في المصنفات التونسية.

لكن، هل آثار الرحالة الأوربيين هذه كافية للوقوف على دقائق حياة البدو وثقافتهم خلال الفترة الحديثة؟

نطرح هنا إشكالية المصادر التاريخية وتنوعها؛ فبقدر ما يمكن الاعتماد على المصادر الغربية لكتابة التاريخ المحلي، على أساس أنها تنفرد ببعض الأخبار التي يتحاشاها أو يجهلها المؤرخ التونسي، بقدر ما يجب أن نتخذ كل الاحتياطات من مزالق هذه المصادر والمتمثلة في النظرة المنغلقة للأوربيين ضمن المرجعيات الغربية التي اعتمدها في فهمهم «للآخرين»، مثلما سبق وأشرنا إليه أو نظرة الاستعلاء الأوربية أو كذلك الأخطاء التي يقع فيها هؤلاء الأجانب عن الحضارة العربية الإسلامية من حيث الإحصائيات التي يقدمونها وأسماء الأعلام التي لا يحسنون نطقها وكتابتها.

□□□